تقويم جـــديد

لدور الادب العربي في العصور المتأخرة

الدكتور نوري حمودي علي
كلية الاداب - جامعة بغداد

لقد ظل الادب العربي وفيا في التعبير عن الاحوال التي تجتازها الامة ، وظل الادباء العرب صورة مخلصة في مشاركة الامة احداثها ، ومشاركتها الآمها الكبيرة التي ألمت بها على الرغم من تدهور الاوضاع، وشيوع الواقع الاقتصادي السيء ، وتعرض الارض العربية لحملات التتر والمغول ..

ان فترة القرنين السادس والسابع الهجري كانت فترة عصيبة في تاريخ الدولة العربية لانها تعرضت لاحداث كبيرة ، ووضعت الامةوضعا مصيريا وجعلتها امام تحديات صعبة كانت حصيلتها سقوط بيت المقدس، وسيطرت الفرنجة على كافة المدن الممتدة على الشريط السفلي للبحر الابيض ، ودمار بغداد واستباحتها على ايدي التتار وتعرض الثغور المصرية لحملات التهديد .. وهي احداث كانت لها خطورتها ، لانها استهدفت المراكز العربية ، وحاولت انهاء وجودها حضاريا وفكريا وبشريا ، وقد تعاونت على ذلك قوى مختلفة ، وامم متباينة ، جمعتها اطماعها ووحدت بينها مصالحها المشتركة ، ولكن اصالة الشعب العربي وقدرته التي استمدها من تأريخه الحافل بالبطولات ، وايمانه المطلق

بحقه في الحياة مكنه من الوقوف بكل جرأة امام هذه الجحافل ، وهيأ له من الاسباب ما جعلها قادرا على الصمود والتحدي ، لطرد المعتدين ورد الغزاة ، واستعادة الأرض العربية ، وتحريرها .

ان ادب الفترة لم يكن بعيدا عن الاحداث ، وشعراء الفترة لم يكونوا غائبين عن الساحة ، وانما استطاع الادب ان يدخل المعركة فيرسم صورها ، ويعيش مع الاحداث فيكشف عن اوضاعها ، ويتابع دقائقها وخاصة ما كان يدور في اطار تلك الأحداث التي برزت بروزا واضحا وقد حاول الشعراء ان يؤكدوا من خلال قصائدهم احساسهم بصورة البطل المنتصر الذي كانت ملامحه تلوح من تطلعات الواقع ، وتوقعات الاحداث وقد حاول الشعراء ان يضفوا على هذا البطل من الصور ما يجعله محررا ومنقذا ومن الطبيعي ان تنعكس على هذه الصورة مطامح الجماهير التي كانت تؤمن بالرجل المنقذ ليعيد اليها حقها ، ويحقق لها كرامتها ، ويستعيد الأرض التي أصبحت نهبا ، ويسترد الحمى المستباح ، وهي طموحات مشروعة في اعراف هذه الجماهير ، وتطلعات قومية محسوسة ، كانت تمثل الصورة المثلى التي تحددت معالمها في المنظور الجماهيري وقد استطاع شعراء هذه الفترة ان يخرجوا على اطار المعاني المعروفة والصور الشعرية التقليدية التي كانت تأخذ بزمام القصيدة ، لان ارتباط المعاني اصبح مشدودا بالصورة الجديدة التي كانت تنبع من الشكل المرسوم لها ، وهي صورة خلقتها ظروف الواقع الجديد ، ولونتها احاسيس الجماهير المتطلعة التي حاولت ان تكسب الصورة كل المعاني والخواطر ، وتثقلها بالمصالح المشروعة . وهي صورة غير مألوفة في الدائرة الشعرية التي تعارف عليها الشعراء ، وان الدراسة

التحليلية لقصائد الفترة ، ومحاولة الوقوف على المعاني التي ضمنها الشعراء ، تحدد الطبيعة التي تختفي وراء كل معنى ، وتجسد الاندفاع الذي كان يستعجل الاحداث ، ويبني الموقف المطلوب ، الذي يلوح في الانتصار المرتقب . وقد تمكن الشعراء من التعبير الصادق عن كل الرغبات المتدافعة في نفوس الجماهير ، كما حاولوا ان يذهبوا ابعد من ذلك في تخليد المعارك وتخليد الابطال ودفعهم الى سوح الجهاد ، وتكريس الشعر تكريسا لم يشهد له عصر من العصور هذا الاندفاع ، وقد الزم الشعراء الابطال باستمرار الدفاع والقتال حتى تتحرر الارض . ويسترجع بيت المقدس ، وكانت صيحاتهم تتعالى بالتذكير بالمعارك التاريخية الحاسمة ، واستذكار قادة الفتح وابطال المعارك ، والاستشهاد بهم في مواضع الصمود والمطاولة في القتال ، وكانوا حريصين على نقل الوقائع نقلا حقيقيا مستمدا من الاحداث المرئية او المسموعة فهذا ابن قسيم الحموى المتوفي سنة ٥٤٢ للهجرة يمدح الامير بدر الدين فيقول[١] :

بكت الخطوب وثغر مجدك ضاحك
ونبا الحسام وسيف عزمك باتك
يابن الألى اغتصبوا الممالك بالقنا
والى العلا بهم الطريق السالك
ولقد عجزت عن الهناء بدولة
نحن العبيد لها وانت المالك
عربية الاوصاف ذات مكارم
جبر الكسير بها وعاش الهالك

ان الاشارة الى الدولة العربية تمثل تطلعا جديدا في قصائد الشعراء ، وان وقوف الشاعر عند هذا التحديد وفي اطار القيم الاصيلة التي تجبر الكسير ويعيش فيها الفقير البائس لايمكن ان تكون موقفا فرديا عابرا ، ولايمكن ان تمثل عاطفة سريعة وانما هي توجه واندفاع وتطلع ومحاولة لقيام الدولة المرتقبة التي كانت تشخص اليها كل الابصار في وقت تكالبت فيه قوى البغي والعدوان ، وتطاولت على الامة عناصر التمزيق والفرقة واستبدت بها نزعات الضياع والتهاون ، ان صرخة الشاعر كانت تعني محاولة تجمع القوى وتوحيد الشمل بانتظار البطل المرتقب ليعيد لهذه الامة عظمتها ويكشف عنها غشاوة الواقع المرير ، ولم تكن هذه الصرخة الوحيدة في هذا المجال وانما هي واحدة من صرخات تعالت في ارجاء العالم العربي والاسلامي متطلعة الى الرجل المنقذ .

ان فترة القرنين السادس والسابع الهجريين تعد امتدادا لفترة الشموخ العربي ، واستمرارا لعصر البطولة العربية التي تركت احداثها شكلها المتميز في خضم العصر ، وقد تجلى ذلك من خلال الاندفاع الجماهيري الصاخب الذي استطاع ان يرفع عن كاهله اثقل الاعباء ، ويشق طريقه الى النصر ، ويطارد الانتصار من دولة الزنكيين امثال عماد الدين ونور الدين والصالح اسماعيل الذين خلدهم الشعراء وسجلوا انتصارهم واوقفوا قصائدهم لتثمين المواقف البطولية . وابطال التحرير من الايوبيين امثال نجم الدين واسد الدين وصلاح الدين الذي تم على يده تحرير بيت المقدس ، وقد سجل الشعر هذه المواقف تسجيلا تاريخيا دقيقا ، وتابع تصور الوقائع متابعة توحي باستيعاب الشعراء لمهماتهم الاساسية ، والتزامهم بالدور القيادي في استمرار عملية الاندفاع ،

وتأكيد الجانب البطولي في تثمين المواقف ، وتسجيل الاحداث التزاما بالرصد التاريخي .

ولعل ملحمة اسامة بن منقذ التي سجل فيها جانبا من الفتح تمثل خالدة من خوالد الشعر العربي في هذا المجال ، لانه دون فيها الوقائع والسرايا والجيوش ومن قادها والمواقع وما جرى فيها ، ويفتتحها بقوله :

أبى الله الا ان يدين لنا النصر ويخدمنا في ملكنا العز والنصر

وهي ملحمة طويلة سجل فيها الشاعر امله المرتقب في تحرير بيت المقدس فقال ..

ونرتجع القدس المطهر منهم ويُتلى باذن الله في الصخرة الذكر

ان الدائرة التي احاطت بالدولة العربية تتجدد ولكنها وفق تخطيط اوسع ، ودراسة تشارك فيها جهات متعددة ، ووجوه مختلفة ، ولكن الذي نحسه الان هو موقف الادب من الاحداث ، فالشعر في فترة القرنين السادس والسابع الهجريين وقف في الشام ومصر وبغداد وكل الاقطار موقفا واحدا يردد وبصوت واحد يهتف لاستعادة الارض ، وتحريرها ، وطرد الاعداء وتوحيد الصف للدفاع عن حقوق الجماهير ، وموقف الفكر موقف واحد يهيء الاذهان ويشارك في دفع هذه الجماهير لتقف الموقف الموحد من كل الدعوات التي خلفتها عناصر التمزق . ان موقف الادب في عصرنا موقف مخذول ، وموقف الشعراء فيه موقف متردد لم تدفعهم نخوة ، ولم يستثرهم احساس ، وهم يرقبون الساحة وقد ذبحت فوقها كل عناصر الوطنية ، وفقد الاحساس القومي ، وماتت روح الاندفاع ، ومن النادر ان نجد شاعرا يتحرك لهز المشاعر او يستثير العزائم او يخلد مواقف الابطال الذين تساقطوا وهم يؤدون الواجب المقدس .

ان بطولات الشعب العربي وهو يقاوم مؤامرة ايلول الاسود ، وبطولاته وهو يقاوم العدوان في الارض المحتلة وفي بؤرة التكثيف الصهيوني ، وبطولاته وهو يسجل معارك الدفاع والاقتحام في سيناء والجولان ، وبطولاته وهو يتحدى المؤامرة العالمية والعربية في لبنان ، وبطولاته وهو يرسم ابعاد الملاحم الخالدة في تل الزعتر ومخيم صبرة واحياء بيروت الخالدة وساحات دمشق المشهورة وميادين رام الله والخليل وسجون عسقلان وصفد .. كل هذه البطولات لم تهز الشاعر العربي المعاصر ولم تحرك مشاعره الوجدانية ، ولم تجد صداها في احاسيسه الانسانية الا نادرا . ان دراسة هذه الظاهرة البطولية الخلاقة التي يسجلها الشعب العربي فوق كل ارض ويؤكد وجوده وانسانيته وارتباطه الحقيقي في كل مناسبة ، وانفصالها عن التعبير من خلال النماذج الادبية التي يقدمها الادباء المعاصرون تشكل ظاهرة مدانة ، وموقفا متخاذلا ، وانفصاما عن الجوهر الحقيقي للامة التي تحرك فيها الجانب البطولي ، واخفق فيها الجانب الحسي ، على الرغم من اتاحة كل الامكانات وتوافر كل الشروط ، وفسح كل المجالات لتقديم النتاج الادبي المتناسب مع عظمة مواقف الصمود .

ان هذه الاشارة التي دفعني الى الوقوف عندها حديثي وانا اقلب صفحات التاريخ البطولي لهذه الامة ، واجد الموقف الانساني لاولئك الادباء والمفكرين الذين تقدموا الصفوف ، ومجدوا مواقف البطولة وواكبوا مسيرة التحرير من موقع الى موقع ، ورافقوا جحافل المحررين من بلد الى بلد ، وخلدوا صمود الرجال .. هذا التاريخ الذي اطلقنا عليه تأريخ الفترة المظلمة .. ظلما وعدوانا . اعدها فاتحة اعادة

جديدة لتقييم الواقع الادبي الذي عاصرها ، ليأخذ حقه في مجال التقييم ، ودوره في مسار الادب ..

اذا كان الادب الذي واكب الاحداث الكبرى في هذه الفترة . فترة القرنين السادس والسابع الهجريين وهو يسجل كل هذه الانتصارات هو ادب الفترة المظلمة فماذا يمكنني ان اقول وانا ارى كثيرا من الشعراء والادباء قد تحجروا وهم على مقربة من كل البطولات، يسمعون احداثها، وينظرون وقائعها ويتصلون اتصالا مباشرا بكل صغيرة وكبيرة من اجزائها .. الا يحق لي ان اسمي ادب الفترة الحاضرة الذي لم يعبر عن طموح الجماهير ، ولم يتحسس امالها ، ولم يسجل خلودها او انتصارها ، بادب الفترة المظلمة .. الا ان هذه الوقفة على الرغم من قصرها هي مفتاح دراسة عميقة لابد ان تأخذ مكانتها في الميدان الادبي ..

لقد زخرت فترة القرنين السادس والسابع الهجريين باعلام الشعراء الذين خلدوا الاحداث ، ووقفوا فيها موقفا واضحا تبلور من خلال النضال العنيف ضد قوى الشر والبغي ، وحاولوا ان يحتفظوا بشخصية الادب العربي ويحرصوا على المقومات الاساسية التي تألقت اصولها ، وظلت جذوتها المتقدة تمد الشعراء بالوقود الجزل والضرام العاصف لتلهب الاعداء والخصوم بشواظها المحرق .

ان حرص الادباء في هذه الفترة على بعض الجوانب التقليدية في ابواب الادب او محافظتها على الاصول ينطلق من فكرة الجمود او التقليد اللاواعي لمبررات هذا الحرص او التقليد ، وانما كان ذلك ضرورة لازمة فرضتها طبيعة المرحلة واكدت الالتزام بها اصالة الوعي لتظل هذه الاصول حية دافقة ، ترفد الحركة الادبية والفكرية بروافد الفكر العربي

الخلاق ، وتغذى نسق الحياة العربية بالزاد النقي ، وقد ادى ذلك الى استمرار بقاء روح العروبة ، ودفعها الى ان تحيط نفسها بما وقاها من السقوط والاندثار ، وجعلها في مركز حضاري مرموق استطاع ان يفرض وجوده حتى على تلك الامم التي فرضت نفسها على الامة العربية واحتلت ارضها لفترة من الزمن .. ومن الطبيعي ان يدفعهم هذا الحرص الى ان يتمسكوا بالأدب تمسكا موغلا ، ويحتفظوا باشكال قد نراها الان غير مقبولة ، ولكن طبيعة التحدى الذي جابه الأمة ، وشراسة الهجمة الظالمة التي تعرضت اليها ، وقسوة الاقوام الذين استباحوا الحضارة العربية ، ولدت في ضمير الامة قوة الالتزام ، ودفعتها الى الحرص على تقاليدها وما يتصل بها لانها جزء لا يتجزأ من جوهر اصالتها ، ومن هنا كانت طبيعة التقليد ، على أن هذا لم يفقدها خصائص حياتها المرحلية ، وطبيعة اوضاعها التي تعيشها ، لان الشعراء تركوا لحياتهم مجالا في ادبهم ، فعبروا عن الواقع الى جانب التعبير الوجداني والحسي والذاتي الذي كانت تلوح اماراته من ثنايا الحديث .. الا ان الصورة الكبيرة التي رسمها الشعراء كانت تستقطب المعارك البارزة ، وتجمع الشعر الحماسي الذي اشاد بنضال المقاتلين ، وسبل معاركهم الضارية ، ومجد مواقع الصمود ، ولعل كلمة صلاح الدين المشهورة التي اكد فيها دور الادب في المعركة حيث قال : انني لم انتصر بسيفي وانما انتصرت بقلم القاضي الفاضل ، هي كلمة لها مدلولها المشهود في تسيير واقع الاحداث ولها وقعها الفاصل في الدور الحماسي الذي اداه الادباء وهم يدفعون الجموع ويثيرون في النفوس الاندفاع ، ويرسمون لهم طريق النضال الخالد ، ويستشهدون امامهم بمظاهر البطولة الفذة ، ويرتلون في صفوفهم

اناشيد الثورة والقتال .

ان وقفة قصيرة عند فترة صلاح الدين ترسم صورة واضحة لهذا العصر البطولي الخالد ، وتدفع كل الباحثين الى اعادة النظر في كل الاحكام السريعة التي نقلوها وهي غير حقيقية ، واكدوها وهي بعيدة كل البعد عن منطق الاحداث وواقع العصر .

لقد اقترن العصر بالبطولة ، واتفق على تخليد المجد ، والاشادة بالوقائع ، والتفاخر بالجهاد ، وقد وجد الشعراء في بطولة صلاح الدين الصورة النموذجية ، وعرفوا في قدرته وتضحيته الرجل المسؤول الذي حمل لواء الجهاد وليس غريبا ان يتعاون على رسم بطولته اكثر من خمسين شاعرا من مصر والعراق وبلاد الشام ويروى صاحب الخريدة[٢] فيقول : كنت جالسا بين يدي الملك الناصر صلاح الدين بدمشق في دار العدل ، فحضر سعادة الضرير وهو من اهل حمص ، ووقف ينشد هذه القصيدة في عاشر شعبان سنة احدى وسبعين وخمسمائة .

حيتك اعطاف القدود ببانها لما اثنت تيها على كثبانها

الى ان يقول :

بصوارم اجفانها قمم العدى
لا ماكساها القين من اجفانها

ملك اذا جلبت عرائس ملكه
رصعت فريد العدل في تيجانها

واذا جحافله اثرن سحائبا
لمعت بروق النصر في احضانها

وهذا مهذب الدين عبدالله الموصلي بن اسعد الموصلي يفد عليه

وهو في مخيم بالعاصي عندما وصل الى حمص ينشده في مدحه ..

وما ضع الفرنج لديك حتى
رأوا ما لايطاق من الكفاح
وما سألوك عقد الصلح ودا
ولكن خوف معلمة رداح
ملأت بلادهم سهلا وحزنا
اسودا تحت غابات الرماح

وهكذا ظل الشعراء يسجلون خطى صلاح الدين وخطى جحافل جيشه القوى ، منذ ان ادرك الشعراء انه الرجل المنقذ ، والبطل الذي يملك زمام المبادرة ، ويؤدي الامانة حيث يجب ان تؤدي . ولكن هذا الشعر المتبقي ، لم يكشف الا عن جانب ضئيل من الشعر الذي انشد في حضرته او ارسل اليه . وان اعدادا ضخمة من القصائد قد ضاعت او فقدت او اطمست ، ولعل وجود الاخبار المنقطعة التي رويت عن ابن الساعاتي الذي قال في صلاح الدين قصائد طويلةو كثيرة ، ولكن الذي بقى منها هو ابيات مفردة او مطلع قصائد ، وقبل ابن الساعاتي علي بن المبارك ، وابن الشحنة والحكيم ابو الفضل .

لقد ظل موقف الشعراء من الاحداث في فترة القرنين السادس والسابع الهجريين مرتبطا بمواقف البطولة لانهم سجلوا الوقائع ، ودفعوا الجماهير الى التضحية والفداء ، والتحريض على الاستشهاد او التهنئة بالنصر ، وقد قدم هؤلاء الشعراء تاريخا مفصلا لكل معركة ، وقفوا من خلالها على اسلوب المعركة وقوة العزيمة ، وخطط الحرب ، ومبلغ الاندفاع ، ودواعي الانتصار ، كما وقفوا عند الاتجاهات التي كانت

تحيط الموقف ، والتيارات التي كانت تدور في الجو السياسي والحربي • واشارت بعض القصائد الى اولئك المارقين الذين كانوا لايجدون غضاضة في التعاون مع الغزاة ولايجدون حرجا في التعاون مع قوى الظلم والغزو ، ولايجدون حراجة من الاستعانة بهم والاستنصار بقواتهم والاحتفاظ بعلاقاتهم وهي مرحلة سياسية كانت لها اهميتها في الساحة الحربية في تلك الفترة ، كما اشارت الى الاتفاقات السرية والمحادثات المشبوهة التي كانت تدور في اروقة الخفاء للوثوب على احتلال ما تبقى من الارض العربية ، وكانت اهدافهم هذه تدفعهم الى انتهاز كل فرصة للوصول الى هذه الغاية ، واشارت الى الموقف المتخاذل الذي وقفته بعض الاطراف • ولم يكن الشعر متسامحا مع هؤلاء ولا مع اولئك ، وانما كان صريحا في المجابهة ، وحادا في التشخيص ، ووثيقا في التعامل مع كل الاطراف ولعل هذه الخصيصة الفنية قد اضفت على ادب الفترة من الصفاء والنقاء ما جعلها واضحة المعالم لمن حاول استجلاءها ، ولكنها ظلت تختفي وراء حجاب سميك من التقولات التي احاطت الفترة وتركتها نهبا لكل قائل، ومجالا لكل مدعي ، ومسرحا لكل رواية ضعيفة •

ان الشعر رسم الواقع والقلق ، وحدد معالم الانتصار والصمود ، واستبطن الصورة الجديدة التي يمكن ان تمثل من خلال التفاعل الحقيقي والاطماع الشخصية التي كانت تتكالب على تمزيق وحدة هذه الامة ، لتساهم في نكبتها ، وتشارك في تقويض وحدتها ، وتجعلها نهبا لكل طامع ، وصور الحزن الذي كان يساور قلوب المؤمنين بانتصار هذه الامة وهم يتابعون الموقف بحذر ، ويفسرون الوقائع ، وتحلل مجريات الاخبار • ان هذه الاشكال الحقيقية التي وقف عندها الشعر ، وافلح في

تصويرها الشعراء لايمكن ان تكون بعيدة عن اقلام الباحثين الذين تناولوا الفترة ، وبذلوا جهودهم في تقويم ادبها ، وتسجيل احداثها .

ان خطوة صلاح الدين في توحيد جهود الامة لاسترداد فلسطين تمثل المنطلق الحقيقي لتهيئة الجو السليم لخوض معركة التحرير ، وان هذه التجربة الحقيقية تشكل الاساس الذي يجب اعتماده اساسا في فرض كل معركة ، وقد استطاع ان يحقق امله وطموح الجماهير في وحدته هذه . وفق ستراتيجية مرسومة من اجل توحيد الجهتين الشرقية والغربية مع الجهة الشمالية لاحكام القبضة وضبط الخطة ، وهذا يعني ان الوعي العربي لهذه الخطوة كان وعيا نابعا من المصلحة الحقيقية لهذا الشعب ، وان ادراك القيادة لسلامة هذا التخطيط كان يمثل الدراسة التحليلية لفن قيادة الحرب .

ان فكرة الشعراء كانت تتركز في هذا التوجيه ، وان بناء قصائدهم كان يتركز في تكثيف هذا الموقف وتحديد البعد الفكري الذي كان يساور جماهير الامة وهي تتلمس نوايا هذه الوحدة تتحقق على يد البطل المصلح . وقد ظلت اصداء هذه الوحدة تتعالى في قصائدهم ، وكانوا يجاهرون في ان الساعة قد حانت لتحرير بيت المقدس .. فهذا ابن عساكر علي بن الحسن بن هبة الله يمدح نور الدين ويؤكد هذه الحقيقة فيقول :

ولست تعذر في ترك الجهاد وقد
اصبحت تملك من مصر الى حلب
وصاحب الموصل الفيحاء ممتثل
لما تريد فبادر فجأة النوب

وبقيت فكرة تحرير بيت المقدس نقطة تركيز في اشعار شعـــراء الفترة ، لانهم كانوا يؤكدونهـا في كل مناسبة ، ويعيدون الحـديث عنها في كثير من القصائد الموجهة ، وهذا يعني ان الشعراء كانوا ينطلقون من فكرة ثانية ، ويتحدثون من خلال معطيات مصيرية محدودة ، لانهـم آمنوا ان النصر لايمكن ان يتحقق الا اذا تم التحرير واعيدت الارض ، ولعل القصائـد التي كانت توجه الى صلاح الدين كانوا لا يغفلـون الحديث عن تحرير القدس فهذا العماد الكاتب يعـزى صـلاح الـدين بمناسبة وفاة عمه بقصيدة ولكنه يميل في بعض ابياتها الى الموضوع الذي كان يشد الناس الى الحقيقة ، ويوجههم الى محور الالتقاء فيقول ،

ولاتهملوا البيت المقدس واعزموا على فتحه غازين وافترعوا البكرا

وعندما يتحدث اليه مهنئا بفتح غزة يعيد على اسماعه حديث فتح بيت المقدس فيقول :

غـزوا عقـر دار المشركين بغـزة
جهارا وطرف الشرك خزيان مطرق

وهيجت للبيـت المقـدس لوعـة
يطول بهـا منـه اليـك التشـوق

هو البيت ان تفتحه واللـه فاعـل
فما بعده بـاب من الشـام مغلـق

ان بيت المقدس هي نقطة الالتقاء عند شعراء الفترة ، وهي موئل الامل في توحيد الشعب العربي الممتد عبر الارض العربية ، وفي حس هذه الحركة الوحدوية كانت تتجلى وحدة الجماهير ، وتتحدد اهدافهـم المثلى للتخلص من جحافل الغزاة وتحرير الارض .

لقد اكدت احداث هذين القرنين الخامس والسادس الهجريين قوة التصميم العربي ، وقدرة المقاومة العربية على الصمود الفعلي ، لتأكيد الحق العربي في تحرير بيت المقدس ، وهو صمود يتحدد من خلال الافكار التي التزم بها الشعراء والاساليب التي استخدموها والمعاني التي كانوا يملؤن بها قصائدهم ، وان محاولة تحليل هذه الافكار ودراسة الاساليب وتوحيد المعاني تقدم نموذجا اديبا سليما في اعادة تقويم الشعر العربي في هذه الفترة ، لان هذه الدراسة ستقدم الصورة الانسانية التي كانت تعتمل في رأسها الافكار والحس القومي الذي كان يقدم هذه الاساليب والقدرة الشخصية التي كانت تضع المعاني والاساليب في خدمة تلك الافكار فالشعر لم يكن تعبيرا شكليا فرضته طبيعة المرحلة ، او حسا عائما فرزته الاحداث ، وانما كان يمثل التوافق بين الامتداد التاريخي للموروث العربي حسا ووعيا وفكرا ، ويمثل الارتباط الوجداني الذي يشد بين التحسس والوجود ، وما يتناسى من خلالهما من انعطافات لها صلة وثيقة بتحويل هذا التحسس الى قوة عاطفية في استعادة الوجود الحقيقي لجوهر الامة . وقد كانت جذور هذا الشعر تمتد في اصول الوجدان العربي وتحتل المكانة التي حددت قدرتها الاحداث ، واكدت وجودها حتمية المصير الذي اصبح يهدد الامة ، ويهز كيانها ، ويتطاول لضرب قيمها . ولم يكن هذا الشعور بعيدا عن الاحساس الذي بدأ يساور الفئة الكبيرة من مفكرى الامة ، الذين اخذوا على عاتقهم تحصين هذه الامة بما يجعلها قادرة على رد عاديات الهجمات الظالمة ، وايقاف حالة التردي التي اصابت فصائل متعددة من هذه الجماهير ، وقد وجد مفكرو الامة ودعاة وحدتها . والسنة مشاعرها من عناصر التحصين

ودعائم التقوية وجلائل المثل ما يعاونهم على تحقيق طموحهم ، فانصرفوا الى توعية هذه الجماهير ، وتجميع قواها ، وتوحيد كلمتها ، ولابد ان يكون الشعر المعبر عن هذا الطموح متوافقا مع الاحساس المتكامل بواقع هذه الاحداث . ومن هنا فأن محاولة تحليل النصوص الشعرية التي قيلت في هذه الاحداث ، وتوحيد المعاني التي اصبحت تشكل الصورة الواضحة لهذا الواقع ، والوقوف عند الفكر السياسي والاحساس القومي الذي كان يمثل الدافع الحقيقي لهذه الصيغ الشعرية، يضع العلامة الكبيرة في خضم القرون المتباعدة ويحقق التقويم السليم الذي يجب ان يأخذ موقعه في مجموع هذه النصوص .

ان دراسة الشعر الذي خلفته حروب التحرير في زمن البطل صلاح الدين سوف تترك البصمات الحقيقية التي طبعت هذا الشعر وحددت ابعاد اغراضه المتمثلة في شعر الجهاد والكفاح ، والصمود والمقاومة ، والتحريض على مجابهة العدو المغتصب ، والاندفاع في تسجيل ملامح البطولة ، والتغني بأناشيد الانتصار ، وتخليد الاعمال التي كانت مثار اعجاب الشعراء والمعاني الاخرى التي ولدتها هذه السورة القومية العارمة فكانت نقطة التماع في السجل القومي ، ومركز اندفاع في استعادة المجد الذي اغرقته تعاسة القرون ، وموئل امل في القدرة على بناء المستقبل المرتقب ولعل ابيات الملك الامجد التي سجل فيها صورة الابطال ، وعكف على متابعة الصور التي تمثلت في نفسه وهو يراها مجسدة . تقدم النموذج الشعري المعبر الذي اصبح اللوحة البطولية لكل فارس امتلك القدرة على خوض المعركة .

وأحماس حـرب فـوق كل طمـرة
مضبرة المتنـين محبوكـة القرا

ليوث وفي يـوم الكفـاح تراهـم
اقـل عديـدا في اللقـاء واكثـرا

معودة ان تتـرك البيض في الوغـى
محطمـــة والسمهـرى مكسـرا

بحيث لسان السيف يصبح خاطبـا
وحيث يكون الهام للسيف منبـرا

وان اقبلت زُرق الاسـنة شرعا
وعاينـت في اطرافهـا المـوت احمـرا

بايدي رجالٍ • ما اخف الى الوغى
اذا ما دعا داعـي الجلاد واصـبرا

رايتهـم والمـوت مـر مذاقـه
يخوضون منـه في الملمات ابحـرا

اسود تخـال السمهرية في الوغـى
لهـا أُجُماً والمشرفيـة اظفـرا

يبيعون في يوم النـزال نفوسهـم
اذا ما رأوا ابن المحامـد يشـترى

ومن كان في يوم اللقاء ابن حـرة
تقـدم لا يختـار ان يتاخـرا

بعـزم يفـل المرهفـات بحـده
ويهـزم في يـوم الكريهة عسكرا

ان هذه الصور التي يقدمها الشاعر لم تكن بعيدة عن واقع الحياة، وان اصحابها الذين رسموا هذه الاوصاف هم اولئك الذين كانوا يسجلون الانتصار فوق الارض العربية ، ويحققون المجد في المواقع الخالدة التي اراقوا على ترابها الزكي دمهم الطاهر ، فاقتحموا حصونها المنيعة ، واعادوا اليها حريتها التي سلبت ، هم اولئك النفر الذين اندفعوا بعقيدة صادقة يدافعون عن الارض التي ابعدوا عنها ، يطهرونها من المغتصب الذي حاول ان يستوطنها ، اذلالا لاهلها ، ويستعمرها امعانا في اغتصابها ، لقد كان الشعراء مخلصين في تحديد الصورة ومؤمنين بتقديم النموذج ، وموقنين بسلامة النتائج التي تنتهي اليها هذه الحرب ، كما كانوا واثقين بصدق الدوافع التي كانت تدفع هؤلاء الابطال لتسجيل مثل هذه الانتصارات .

ان دواوين الشعر التي قيلت في هذين القرنين تمثل الثروة الادبية التي ارخت لاخطر فترة ، وتمثل الخصب الفني لا على نماذج واقعية . وتمثل الحس القومي لاصدق مشاعر ، ادركت مرحلة الانهيار واستفاقت وتلمست بوادر المؤامرة فجابهت ، وتحسست عوامل السقوط فاندفعت وقد استطاعت هذه الجماهير ان تخوض التجربة وتعيش المجابهة ، وتجتاز الامتحان المريع وتسجل القدرة التي حققت لها الانتصار وتكتب الشعر الذي خلد هذا الانسان .

ان مصادر التاريخ قد حفلت بهذه السيره ، ووقفت عند المعارك التاريخية الحاسمة ، واكدت وقوف الشعر الى جانب المجاهدين والمحررين ، ولعل مقدمة كتاب الروضتين في اخبار الدولتين النورية والصلاحية لعبدالرحمن المقدسي المعروف بابي شامة المتوفي سنة ٦٦٥

للهجرة تكشف عن الكتب التي اعتمدها هذا المؤرخ في تسجيل معارك الفتوح وما جرى فيها وقيل بشأنها من اشعار ودون من اخبار وما اكتنف هذه الفتوح من احداث ، واعتراها من نوازع . وقد كان الشعر حليفا ورفيقا لكل هذه المعارك ، ومؤرخا ومسجلا لكل تلك الاحداث ، وموفقا في رصد كل الظواهر البشرية والتطلعات القومية التي كانت تنطلق من افواه الشعراء او تبرز من خلال الاحداث ، او تتعالى من ثنايا شدة المعارك وهي تأخذ شكلها الحماسي او اطارها القومي ، وكثيرا ما تلتقي هذه القصائد في المعاني التي تعرض اليها لانها ترتبط بالتحسس الذي كان يؤكد موقف الامة وهي ترد عنها عادية السقوط ، وتدفع عن تأريخها صرامة الهجمة ، وتلتقي في النوازع لانها ترسم المطامح الكبرى التي عاشت في الفكر العربي الواعي الذي اخذ على نفسه مهمة تحديد المرحلة اهدافها واعية وموجهة ، وتقتحم الموقف صامدة وموقنة بالانتصار ، وقد المستقبلية وفي هذه اللقاءات كانت تلتقي الامة مجاهدة ومفكرة ، وتتحد حاول الشعراء ان يكونوا دعاة الامة في طريقها الصعب ، ورواد الطريق في مجالها الضيق ، ومشاعل النصر في مرحلتها الحرجة ، وقد استطاعوا ان يكونوا عند حسن ظن جماهيرهم لانهم استوعبوا المهمة بشكلها الانساني ، واحترموا المسؤولية بوعي وادراك ، وحددوا لانفسهم المركز الذي يجب ان يحتلوه في عالمهم . ولعل هذا الاحساس قد سجل لهم الخلود ، وحقق لهم التعبير الصادق .

ان قيم الحق والخير والوطنية لايمكن الحديث عنها بمعزل عن الدوافع الحقيقية التي حددت هذه القيم ، وان الارتباط بينها وبين الاطر الاجتماعية والحضارية والفكرية التي شدت بينها وبرزت من خلالها يمثل

التصور الواضح الذي رسم لهذه القيم خط سيرها واتجاه حركتها في هذا العصر ، وان استرجاع الواقع الذي تبلورت فيه فكرة التحرير ومراجعة العوامل التي هيأت لهذه الحركة العربية مسيرتها تشكل النقطة التي يجب ان تبدأ منها الدراسة ، والمنطلق الذي يؤخذ بنظر الاعتبار في تحديد مفهوم التحرير والانتصار والمقاومة والصمود ، لان التحرير كان يعني بالنسبة للعرب العودة الى الوطن وطرد الغزاة ، واسترجاع الارض وان هذا المفهوم يختلف عن أى مفهوم آخر يحدد هذا المعنى يبرز في مكان غير هذا المكان ، وعليه فان دراسة الشعر والوقوف عند معانيه ،

واستبطان اغراضه التي حصرت في هذا المعنى ودارت في قطر هذه الدائرة ، والتقت في حدود التوجه الارادي للامة تكشف عن الدوافع الاجتماعية التي احاطت بالادب ورسمت طريقه واثرت في اتجاهاته وحددت معالم التيارات الانسانية البارزة في كل خطرة من خطراته . كما انها تكشف عن المسارات الفكرية التي بلورت عملية التحدي ، وروعتها شراسة الهجمة ، واثقلتها صرامة الانتقام الذي برز في القسوة القاهرة والاستباحة الدموية المفجعة . وسيول الدم العربي الذي اريق فوق كل رابية والى جوار كل حصن وعند كل واد ممرع . وفي طرق وازقة كل مدينة عربية استباحتها الخيول الهمجية ومزقتها سنابك البربرية الظالمة .

فمحاولة الانتصار لهؤلاء الشعراء ، او الانتصاف لهم لاتقتصر على هذه الفترة ، ولا تتحدد في هذه النخبة ولا تقف عند هذا النوع من الادب ، وانما هي محاولة اعادة الشكل الحقيقي لمهمة الشاعر والاديب والفنان ، وهو يقاتل وينتصر ويصمد ويخلد وهنا يجب ان نقف عند

الواقع الحضاري الذي يعيشه هذا الشاعر ، ونحلل هذا الواقع تحليلا منوازيا يعيد اليه مرحلة التكوين التي تفاعلت في بناء هذا الواقع ، وهي لا تخلو من بناء فكري موروث او مكتسب ورثته الامة من خلال بنائها الحضاري وبناء اجتماعي تفاعلت في تكوينه عوامل لا اريد تحديدها ولكنها واضحة الابعاد مدركة التصور ، وبناء سياسي مفروض خضعت له الامة لاسباب لم تكن مسؤولة عنها او قادرة على ردها ، وقد ظلت هذه العناصر تنحت في وجود الامة وتطبع شخصيتها وتؤثر فيها حتى جعلتها تلتقي في اهداف لم تتوحد في أى وقت ، ولم تبرز في اية مرحلة ، وتندفع بثبات لتحقيق هذه الاهداف على الرغم من واقع التمزق ، والاحساس بالفرقة والشتات ، وتصمد بعنف امام كل الجحافل الغادرة التي تكالبت ، وهنا تبرز اصالة الامة ، وتنتفض هويتها وتستعيد هذه الامة امجادها من خلال التاريخ او الادب او العلم فتحول التمزق الى وحدة ، والفرقة الى تلاحم ، والانخذال الى اندفاع وتوثب ولا يمكن في هذه المرحلة ان يموت دور الادب ، او تنتهي صيحات الشعر ، او تتضاءل قدرات المفكرين الذين هيأوا الجو لظهور البطل ، ومهدوا السبيل لتسجيل الملاحم الخالدة في كل معركة ، ودفعوا الجماهير الى بناء النصر . وقد كانت هذه الاصوات تنتقل من جبل الى قلعة ، ومن مدينة الى ثغر ، وفي كل حمل ادبي كانت صيحة الارض تأخذ حقها ، وكان نشيد النصر يدور على كل لسان ، وكان الشاعر يصدح مفتخرا وراثيا ومادحا ، وقد تحول الرثاء الى انشودة تمجيد ، واغنية تفاخر ، وانتقل المديح الى تسجيل مآثر ، وتثبيت قيم ، وتعداد مفاخر ، أما الحماسة وما قيل في دواعيها ، فقد شغلت مساحات كبيرة في عالم الادب وكتب

التاريخ ، وقد ظلت هذه الاصوات تعلو حتى تحررت الارض ، واستعيدت المحارم ، وطرد الغزاة ، وتركوا للاجيال التي تلت هذا العصر الذكر الحميد والحياة الرغيدة والمجد المؤثل .

ان وقوف الشاعر الى جانب الاحداث الكبرى في فترة حرب التحرير التي خاضتها الجماهير العربية خلال تحرير بيت المقدس ، والتزامه بتسجيل الملاحم الخالدة التي سجلها ابطال المعارك وتحريضهم على تحرير ما بقي من الارض ، يعد موقفا اديبا متقدما ، واسلوبا فكريا من اساليب التوجه الجديد الذي أخذ الشعراء به انفسهم وهم يخوضون تجربة الصمود ، ويدفعون عنهم ظلامة التخاذل والاستكانة ، وقد سجل فيه الشعراء مواقفهم بوضوح ، ورسموا للجماهير صورة البطل الذي حقق الانتصار ، وخلد الشعب ، واكد القدرة على المجابهة الحربية ، وقد اصبحت هذه الانتصارات اناشيد فخر وملاحم تمجيد في اشعار ابن قسيم الحموى وابن القيسراني وابن منير الطرابلسي .. ولم يخف الشعراء تحفظهم او يظهروا خوفهم وهم يفقدون الابطال ويرون الاحداث قد بدأت تأخذ طريقا غير الطريق المرسوم ، بسبب فقدانهم اولئك الابطال ، وتفرق الجماهير ، ووقوعها تحت سيطرة عوامل التمزق وتكالب القوى الحاقدة على الامة ، وضياع التنظيم وفقدان التوجه في اطار الواقع الذي تفرضه المرحلة ، فكانت مراثي الشعراء توغل في تأكيد هذا المعنى ، وتلح في تصويره وتجسد الرؤيا المنتظرة التي تختفي في افق المستقبل . وكأنهم كانوا يدركون الصورة التي باتت منتظرة بعد ذهاب البطل ، وفقدان النموذج ، وهي حالة تعطي هؤلاء الشعراء رؤيا سليمة في استبطان الاحداث ، وقدرة على استكشاف المستقبل وفهما لواقع

الاحداث المستقبلية التي ستحيق بالامة ، ولعل ابيات العماد الكاتب في ثناء صلاح الدين تكشف عن هذا التطلع .

اين الذي مذ لم يزل مخشية
موجوة رهباته وهباته
اين الذي كانت له طاعاتنا
مبذولة ولربه طاعاته
من في الجهاد صفاحه ما اغمدت بالنصر حتى اغمدت صفحاته
لذا المتاعب في الجهاد ولم تكن
مُذ عاش قط لذاته لذّاته
لا تحسبوه مات شخص واحد
فممات كل العالمين مماته
ما كان اسرع عصره لما انقضى
فكأنما سنواته ساعاته
اعزز على عيني برؤية بهجة الدنيا ووجهك لا ترى بهجاته

ان هذا الاحساس بالفقد ، وهذا الادراك لما كانوا يتوقعون ، يؤكد الماهم بالواقع الاجتماعي والنفسي والفكري ، ويؤيد حرصهم الذي كان يدفعهم الى التأهب والاستعداد ، والتعجيل باختيار الرجل القادر على المجابهة ، المتمكن من تفهم الاشكال المطلوبة لقيادة هذه الجماهير وهي تتعرض لهذه الحملات الكبيرة فيستهدف مصيرها ، ويهدد مستقبلها ، والشعراء قد خرجوا في نهجهم عن الاطار التقليدي في حصر الموضوعات بالاغراض التقليدية ، وكانوا يعالجون الاحداث بما يتناسب مع حجمها ويتفق مع خطورتها ، فالصراع المرير كان موضع

استثارة لمشاعرهم ، وبداية تحول في الاسلوب الشعري ، لتوعية الناس ، وتهيئتهم للقاء المنتظر ، وبث روح الجهاد والعزيمة ، وتقاوم انطلاقة انتيار ، وقد اخذت هذه الاغراض تستوعب المضامين المعنوية الجديدة ، التي اوجدتها طبيعة العصر ، وفرضتها مستلزمات المرحلة ، فكان الشاعر في رثائه وفخره ، في حماسته ومديحه متوجها في صوب الافكار التي اخذت مواقعها ، فالرثاء لم يعد رثاء خاليا من ربطه باسباب الحياة ، وشده مع المعاني الانسانية التي كانت تزخر بها حياة المرثي ، ولم يعد مجموعة معان بكائية تقف عند حدود الندب او العزاء او التابين ، وانما اصبحت معانيه محملة بكل ما يثرى الحياة من عطاء ، ويغنيها من تضحية ، ويراق فوق جوانبها من فداء ، وفي اطار هذه المعاني كان الابطال يتأثرون لهذه المعاني ويستجيبون لهذه الاصوات ، ويندفعون من اجل المعنى الجديد والتخليد الذي يلازمهم في حالة الاستشهاد او الانتصار ، فكانت بطولاتهم فريدة وتضحياتهم نادرة ، ومواقفهم خالدة . وكذلك خرج الفخر عن الحدود التي ظل يدور فيها او يتحرك في ابعادها لانه اصبح يسجل المكرمة ويخلد الملحمة ، وينزع الى الاستئثار بالموقف الانساني الذي يدعو الناس الى تعظيمه والافتخار به . فالمأثرة اصبحت موجبة للتخليد ، والعمل المبدع والخلاق يفرض على الشاعر ان يتابعه ويسجله ليكون موضع رعاية ، ومدعاة تقليد ، ونموذج اقتداء لمن يريد . ومثلهما تكون الحماسة والمديح لانهما خرجا عن الحدود المعروفة واتسعا ليشملا ميادين فسيحة ، وبدأ يعالجان المواقف الانية ، ويدورا في حدود المستحدثات الواقعية التي اجدتهما ظروف التحدى ، وخلفتهما عوامل الاستعداد وهما بذلك يقدمان نماذج

جديدة لا يمكن تجاوزها او الابتعاد عنها بحجة الاغراض التقليدية التي سادت العصور وعرفها الشعراء .

ان حيوية عصر القرنين الخامس والسادس الهجريين دفعت الشعراء الى المشاركة الحسية في المعركة ، وحملتهم على ان يقدموا اليها كل ما يستطيعون تقديمه ، وربما يستغرب الانسان وهو يرى أناشيد الجهاد ، وهي تأخذ لونا واضحا ، وتشغل حجما من الشعر العربي في تلك الفترة حتى تصبح ظاهرة من ظواهر العصر ، ومفخرة من مفاخر الشعراء الذين كانوا يتبارون في تقديم المعاني الجديدة والصور الشعرية المحببة لاستثارة الجماهير واستنفار مشاعرها لتندفع بقوة . مجاهدة ومقاتلة . صامدة ومضحية . وقد اصبح لهذا اللون شكله في المخاطبة ، واطاره في المعاني ، وابعاده في الحس القومي والوطني فهو نشيد البطل الذي يغنيه ، اغنية الثائر الذي يقود الجحافل ، وترتيله الجماهير التي ترى التضحية في اعمال قادتها الميامين وهم يرسمون طريق المجد والخلود . وقد اصبح هذا الضرب من الشعر ظاهرة في هذا العصر وقد استخدموا وزن الدوبيت في هذا الضرب الشعري . وقد عرف العماد الكاتب به ، وروى ابو شامه في كتاب الروضتين في اخبار الدولتين مجموعة من هذه الدوبيتات . على لسان الملك العادل نور الدين ..

للغزو نشاطي ، واليه طربي
مالي في العيش غيره من أدب

بالجد وبالجهاد نجحُ الطلب
والراحة مستوعة في التعب

وقال في نشيد آخر :

لا راحة لي في العيش سوى ان اغزو
وسيفي طـــربا الى الطلى يهتـــزُ
في ذل ذوى الكفر يكـون العـز
والقـدرة في غـير جهـاد عجـز

وفي ثالثـة يقـول :

اقسمت سوى الجهـاد مالي ارب
والراحة في سواه عنـدى تعـب
الا بالجـد لا ينـــال الطلـــب
والعيـش بلا جهـاد جـد لعب .

ان هذه الاناشيد التي قيلت على لسان البطل تمثل نقطة تحـول جديدة في الشعر لان العملية اصبحت تجريبية بحتة ، يتحدث الشعر من خلالها عن تجربته ويصف نوازعه واحواله ، ويتحرك وفق التصور الذي يرسمه البطل وهو يعد خطته للهجوم ، ويوجه جنده للقتال ، ويقـدر موقفه من الخصوم . وكانت المعاني الصادقة والحقيقية تبرز باتجـاه التحدي ورفض الانصياع لمنطق التكاسل والتواني والتخاذل . ونبذ الحياة السهلة .

ولعل عبارة الجهاد التي تكررت في الاناشيد الثلاثة كانت تعطـي نقطة الارتكاز في هذا التحرك لان الجهاد اصبح حقا وهدفا ومنطلقـا ، وان الالتزام به والتأكيد عليه والاندفاع نحو تحقيقه اصبح امثولـة العصر ونموذج الاقتداء وقد استطاع هذا الاتجاه ان يثبت نفسـه في اذهان وقلوب الجماهير ، ويستحوذ على مشاعرهم واحاسيسهم لانـه

استقطب هذه المشاعر فوجهها ، وحرك العامل الديني فوفق الى الانتفاع منه .. والجهاد يمثل القدرة التوجيهية التي تستطيع ان تدفع الجموع الى التضحية والاستشهاد وهي مؤمنة بمصيرها ، وواثقة بقدرتها على التحدي والوقوف امام جحافل الغزاة الذين ارادوا ان يسرغوا مجدها ويذلوا كبرياءها ، ويسحقوا قدرتها . ان صرخة الجهاد التي تعالت في هذه المرحلة كانت تمثل الرد الحقيقي على الاصوات التي ارادت الاجهاز على حقيقة الامة ، وافناء شخصيتها وقتل طموحها في البناء الحضاري ، وقد استطاعت هذه الصرخات ان توحد صفوف الامة ، وتجمع اطرافها المتباعدة ، وتلم جبهاتها الشمالية والشرقية لتطبق على جحافل الغزاة ، وتقطع دابر المعتدين .. وقد تحقق لها ذلك . فكان الانتصار وكان الخلود .

ان شعر الجهاد في هذه الفترة كان شعر العقيدة الاصيلة ، وشعر الصمود في وجه التحديات وشعر التوثب لايقاف موجة التداعي التي بدأت تظهر في الوسط السياسي والفكري والاجتماعي ، وقد اكتسب واقعا شعريا جديدا لاحتوائه تلك المفاهيم ولانصرافه الى المعالجات المضادة لما كان يريد ان يقع او يسود وقد تجلت تلك القدرات في المضامين التي اصبحت جزء من عناصر الحياة ، ونسغا جديدا يغذى عروق شجرتها التي قاومت كل صروف التهاون والانحدار .

لقد استمر الشعر في تصعيد مشاعر الجماهير وهي تكتب صفحات الانتصار وتخلد روائع المجد ، وترتدي حلة الفخر والتباهي ، وقد استطاع ايضا ان يحتوى المعاني الجديدة ، ويصوغ الافكار التي افرزتها حركة التحرير ، ويسجل اضراب البطولة التي اكدت قدرتها من

خلال المعارك ، كما استطاع ان يفرض نفسه على الاحداث وسيلة من وسائل التعبير الملحة ، ورافدا من روافد الفكر القومي الذي واكب المسيرة ، فاعد لها من قوته ما جعلها واضحة الاهداف بارزة المعالم ..

لقد تميز العصر باحداثه الكبيرة التي كان لها وقعها في تحديد مسيرة الامة ، وملاحمه الخالدة التي وضعت الامة في موضع الامتحان ، ورسمت لها طريق الاهتداء ، ومكنتها من تأكيد شخصيتها . وقد استطاعت هذه الاحداث والملاحم ان تطبع العصر بطابع خاص وضحت جوانبه ، وحددت خطوطه من خلال التأثير المباشر الذي امتد الى كل مظهر من مظاهر الحياة ، ومن خلال التحرك الفكري الذي انعكس في كل حركة من حركات التحرير ولعل وقوف الشعراء عند ملحمة حطين وتحرير بيت المقدس وتمجيد ابطال المعارك تمثل الانعطافات الشعرية الحادة في حركة الشعر العربي ، وان كل جانب من هذه الجوانب يشكل دراسة مستقلة في التحليل ، لتأخذ الفترة حقها ، ولتستعيد صورتها ولتصبح في اعراف الباحثين مركز دفع ، وحركة انطلاق ، ومجال توثب .

ان موقف الشعر لم يقف عند الجانب الحربي او البطولي وانما كان سجلا حافلا لحضارة العصر وتقاليده ، وسفرا خالدا من اسفار انواقع الاجتماعي الذي كانت تعيشه الامة ، وتتحرك في اطاره جموع الشعب ، ومستودعا ثرا من مستودعات الخزين الفكري لما كان يدور في الاذهان ويطرح في مجال النقاش وان محاولة الوقوف عند هذا الشعر ووضعه موضع التحليل يكشف عن كثير من المسائل التي ما تزال اشكالها غير متميزة .

ولعل الحدث الثاني الكبير الذي الم بالامة بعد انتصارها في حروب تحرير بيت المقدس هو الصراع المرير الذي خاضته ضد الغزاة الجدد الذين اندفعوا من اواسط آسيا الصغرى ، لمحاولة اكتساح هذه الامة ، وازالة معالم وجودها وطمس حضارتها وان اندفاعهم بهذه الاعداد الغفيرة ، وانطلاقهم صوب عاصمة الحضارة العربية وموئل الفكر العربي بغداد ، كانت تمثل الهدف الاساس الذي كان يراودهم لاستئصال جذور الامة ، وانتزاع وجودها الاصيل ، وقد استطاعت هذه الجحافل الغازية ان تكتسح فعلا البلاد الاسلامية لاسباب لا مجال للوقوف عليها الان ، وان تكون على مقربة من بغداد .. وبعدها تدخل هذه الجيوش بغداد المدينة الصابرة فتعيث فيها فسادا ، وتستبيح الارض والعرض ، وتنتهك الحرمات وتترك المدينة صورة من صور الدمار ولوحة من لوحات الخراب ، بعد ان ديست بسنابك الخيول التترية ، وذلت لسيوف الغزاة الذين حاولوا اغتيال كبريائها ، واذلال شموخها ، وانهاء صوتها العربي المدوى .. وهنا يقف الشعر مرة اخرى موقفه البطولي ، ويندفع الشعراء اندفاع الملتزمين للدفاع عن الارض والشرف ، والذود عن حياض الكرامة المستباحة ، والاصالة العربية المضاعة ، ورثاء المدينة التي تداولت عليها النكبات ، وتجمعت فوق كل مظهر من مظاهر عزها أمارات البؤس وازدحمت في طرقاتها جثث القتلى وهم يدافعون عن ارضهم ، ويردون عنهم غائلة الغزو المغولي . لقد وقف الشعر ثانية يبكى بغداد ويرثى مأساتها الانسانية ، يسطر البؤس ، وينحت الاسى ، ويستثير النخوة ، ويتعالى في رسم صرخات الاستغاثة .. ووقف الشعراء

بتحد ينشرون صفحات النكبة ويكشفون بدقة عن فداحة المصاب ، ولوعة الفجيعة وكان شعراء بغداد وغيرهم يعبرون عن عمق مأساتهم ، ولوعتهم واحساسهم بالمجد الذي استبيح والحضارة التي هدمت ، والنفوس البريئة التي ازهقت ومجاميع الكتب التي اصبحت نهب الضياع .. وكان الشعراء يدركون ان البعد المأساوى للحدث لم يعد مقتصرا على مرحلة قصيرة ، او على فترة زمنية محددة ، وانما يدركون ان امتداد هذه المأساة ـ من خلال قصائدهم ـ تمتد الى فترة ستترك اثارها واضحة فوق صفحات هذا التاريخ ، وان الانسان العربي الذي تعرض لهذه الهجمة التترية لم تقف حدودها عند وجوده الانساني وانما تعرض اليها وجوده البشري والحضاري والفكري . وهي محاولة تضع الشعر في موضع المسؤولية ، وان النماذج التي ساعرض لها والبطولات التي برزت في خضمها تؤكد ان معركة المصير كانت قائمة ، وان الشعراء كانوا يدركون ذلك ادراكا حقيقيا ، وانهم استطاعوا ان يستشفوا مظاهر النكبة قبل وقوعها ، وان الشعر قد عرض لاوضاع دقيقة ، ووصف حالات بشرية رهيبة ، وخلد مواقف بطولية لا يمكن ان تنسى .

ان هذا الموقف البطولي للشعراء ، وهذا الموقف الوصفي للشعر يؤكد امكانية توظيف الشعر في المشاركة ، ويؤكد امكانية قدرته التعبيرية عن الجوانب الحسية التي اخفق في التعبير عنها الجانب التاريخي ، ولعل مرحلة الوقوف عند ادب هذه الفترة ومحاولة دراسته دراسة علمية ومنطقية سوف يقدم لنا مادة جديدة اخرى نحن بامس الحاجة اليها ، لاننا بحاجة ماسة الى مثل هذه الادلة .

من الصعب على الباحث ان يخوض تجربة مرحلة جديدة لم تستكمل عناصر بحثها ، او تحدد ابعاد مجالاتها ، لانها مرحلة ما تزال اخبارها متباعدة ، ودراستها غريبة ، والوقوف على ادبها يعد ضربا من المستحيل الا نتفا من الاخبار متناثرة ، وقطعا من الاقوال متضاربة ، ومن الغريب ان تكون الاحكام عن مثل هذه الفترات قاطعة ، ويكون التقويم لاحداثها تقويما يوحي باستكمال الاستقصاء وشمول المتابعة وملاحقة الاجزاء .

ان هذا الحديث يصح ان يقال بالنسبة للأدب الذي اعقب سقوط بغداد لان الصورة من خلال النتف والقطع تؤكد موقف الاديب من احداث بغداد ، وتؤكد تعبيره الحسي ، وموقفه الانساني ، وانفعاله وهو يرى ابناء قومه تستباح دماؤهم وهم يذوقون من هول المغول ما لا يوصف بعد ان وضع السيف فيهم فامضوا تحت رحمة القتل والنهب والتعذيب اياما ثقيلة ، الا ان الاحكام عن هذه الفترة لا تعطي هذا الجانب بعض حقه ، ولم تحاول التثبت من صدق المقولات التي اصبحت تلقى بلا تردد ، وتمنح بلا استئذان .

ان الشعر العربي الذي قيل في نكبة بغداد على الرغم من قلته ، استطاع ان يعبر عن روح شعرائه وهم يرون جموع البشر كالتلول في الدروب والاسواق . ومجاميع القتلى اكداسا تركتها الخيول وجثث الاطفال تمتلي بها بطون القنوات والابار والاف الناس يفتك بهم الجوع والوباء ويتزاحمون على المياه التي شابتها اجساد الموتى . ان هذه الصور وما رافقها من مآسي بعد ان استبيحت المدينة نيفا وثلاثين يوما تركت اثرها المؤلم في نفوس الشعراء وتركت صورا لم تزل خالدة لصدق

التعبير وعمق المأساة وقسوة الهجمة .

ان هذا الموقف الحربي وهذه القسوة البشرية وما رافقها من وقائع واحداث تركت الوانا من المآسي ، وحملت المؤرخين على ان يقولوا فيها ما يقولون ولعل ما ذكره صاحب الحوادث الجامعة في اخبار المائة السابعة والعماد في شذور الذهب وابن الاثير في الكامل وابن تغرى بردى في النجوم الزاهرة وغير هؤلاء من المؤرخين يكشف عن المآسي التي الحقت والمصائب التي نزلت وهي صور مرعبة واحوال مخيفة . ولعلها تذكرنا بمذابح التاريخ الكبرى الحديثة مثل مجزرة ايلول الاسود وتل الزعتر ودير ياسين وقبية واللد وغيرها من المواقع التي ارتكبت فيها من الفواجع ما يعجز عن تصويره اللسان . ولم يقف الشعر العربي موقف المتفرج من احداث بغداد وهي تتهاوى امام ضربات المغول ، وعن سكانها وهم يدافعون ببسالة عن الارض فقد خلد الشعر هذه المآسي فقال تقي الدين ابن ابي اليسر قصيدته المشهورة ..

لسائل الدمع عن بغداد اخبار
فما وقوفك والاحباب قد ساروا

يا زائرين الى الزوراء لا تفدوا
فما بذاك الحمى والدار ديار

تاج الخلافة والربع الذي شرفت
به المعالم قد عفاه اقفار

اضحى لعطف البلى في ربعه اثر
وللدموع على الاثار آثار

يا نار قلبي من نـار لحـرب وغى
شبت عليه ووافى الربـع اعصـار

وفيها يقول :

وكم حريم سبته الترك غاصبـة
وكان من دون ذاك السـتر استار

وكم بدور على البـدرية انخسفت
ولم يعـد لبـدور منـه ابـدار

وكم ذخائر اضحت وهي شائعـة
من النهاب وقـد حازتـه كفـار

وكـم حدود أقيمت من سـيوفهم
على الرقاب وحطـت فيـه اوزار

ان القيامة في بغداد قـد وجـدت
وحدّهـا حـين للاقبـال ادبـار

ما كنت آمل ان ابقى وقد ذهبـوا
لكن أبى دون ما اختـار اقـدار

وهي قصيدة طويلة وقف فيها الشاعر عند مآسي المدينة الخالدة ، وتحدث عن الفاجعة التي تمنى ابن الاثير المؤرخ ان لا يكتب عنهـا لفضاعتها .

وبكى شمس الدين محمد بن عبدالله الكوفي الواعظ بغداد بكاء صادقا ، عبر فيه عن مشاعره واحاسيسه وهو يرثى الخلافة ، ويتوجـع للمصاب ، وقد افتتح قصيدته .. باللوعة وتجسيد النكبة التي لـم ينج من صرفها احد من الورى . وقد تمكنت ايدى الاعداء في الاحبة ،

وهي احاديث ترسم صورة الالم الذي اصبح سمة متميزة ، وتحدد ملامح التعاسة التي احاطت بالبشر ، وحلت بالمدينة ، وقد كان موقف الشاعر واضحا من التعاطف ، فقال :

يا نكبة ما نجا من صرفها احد
من الورى فاستوى المملوك والملك
تمكنت بعد عزٍ في احبتنا
ايدي الاعادي فما ابقوا ولا تركوا
لو ان ما نالهم يفدى فديتهم
بمهجتي وبما اصبحت امتلك
اين الذين على كل الورى حكموا
اين الذين اقتنوا اين الاولى ملكوا
وقفتُ من بعدهم في الدار اسألها
عنهم وعما حووا فيها وما مسكوا

ان عمق الاحساس اكد تداعي صورة المجد المقترن بالبناء

اجابني الطلل البالي وربعهم الخالي نعم ها هنا كانوا وقد هلكوا
لاتحسبوا الدمع ماء في الخدود جرى وانما هي روح الصب تنسبك

والحضارة والفكر . وان انصراف الشعراء الى ابراز الجانب الانساني الذي تعرض للسقوط يؤكد الموقف الملتزم في الاصرار على التعبير ، ويؤكد الموقف الحاد الذي اصبح صورة من صور الاحتفاظ باستقلال الشخصية الانسانية وهي ترى البشاعة تتحدى القيم ، وتراقب الاحداث وهي تسجل انخذال الفضيلة والاستهانة بالانسان وتتجاوزه الى الموتى ، وعندها تستحيل الصورة الى فاجعة يصعب تصديقها .. ان

احساس الشعراء كان يوحي بالالتزام ، وتعبيرهم كان ينم عن الربط الحقيقي الذي دفعهم الى الاستثارة ، فبغداد لم تعد في عرفهم مدينة عابرة او عاصمة مجردة ، وانما استحالت الى رمز من رموز الحضارة العربية ، ومركز من مراكز الدفع العربي ، والصمد العربي في مواجهة التحديات ، ومن هنا فان رثاء بغداد كان يعني رثاء للمجد الذي استبيح ، وللفكر الذي انتهك ، وللثروة القومية التي اصبحت نهب الضياع ، وللبطولة العربية التي ذبحت بسيوف التتار والمغول .. وان صرخات الشعر التي تعالت ، واستغاثات الشعراء التي ارتفعت كانت تمثل هذا الاحساس .

وقد تجاوزت حدود النكبة شعراء بغداد الى شعراء فارس فهذا الشيخ سعدي الشيرازي يبكي مأساة بغداد بقصيدة تعد من غرر الشعر ، فيخلد فيها الصورة المحزنة ، ويجسّد في ثناياها المأساة الحضارية التي نزلت بهذه المدينة الصابرة فيقول ..

حبستُ بجفني المدامع لاتجري
فلما طغى الماء استطال على السكر

نسيم صبا بغداد بعد خرابها
تمنيت لو كانت تمر على قبري

لزمت اصطبارا حيث كنت مفارقا
وهذا فراق لا يعالج بالصبر

بكت جدر المستنصرية ندبة
على العلماء الراسخين ذوى الحجر

نوائب دهـر ليتنـي مت قبلهـا

ولم ار عدوان السفيه على الحبـر

ويمضي شاعر النكبة يروى الاحداث ، وقد وقف بعبادان يرقب دجلة وهو يسيل الى البحر كالدم القاني ، فتفيض دموعه ، وتزداد حرقته ثم يعلل نفسه بالاماني ، ولكنه يرجع ثانية الى انكار هذه الافكار ولو تصور دار الملك ترجع عامرة . وان وجه العاملين غسلت من الكفر ولم يجد الشاعر امنية يتمناها وهو يجد النكبة قد تجسدت ، والفتنة عمت ، الا ان يدعو دجلة الى التوقف ، ويطلب الى الاوراق الخضر ان تجف ، لان الناس الذين حلوا هذه الديار لا يستحقون هذا الخير .

لقد اقفرت البلاد فلم تجد فيها الا الغربان المتزاحمة حول رسومها والعنقاء قد لزمت الوكر ، وهو لا يملك بعد هذا الا ان يحيي الشهداء الطاهرين تحية مشتاق ويترحم عليهم الف ترحم ، ويعدهم كما وعد الله الشهداء بدار الكرامة ، ثم يبدأ بوصف بعض جوانب هذه النكبة .

لقد كان الموقف صريحا في الاستجابة ، وكان واضحا في التعبير ، وكان موفقا في تحديد معالم الموقف الصائب ، فالمأساة التي نزلت لا تترك مجالا للهروب ، والنفوس التي ازهقت لا تعطي مبررا للسكوت ، والحضارة الانسانية التي ديست بسنابك الخيول التترية ، لا تعفـو الشعراء والكتاب والمثقفين من مسؤولية الاستنكار ومسؤوليةالتحدى ، ان هذه النماذج الشعرية القليلة التي استشهدنا بها تمثل جانبـا مـن صورة الاستنكار وتمثل نموذجا من نماذج التعبير عن الموقف الملتزم . وان شراسة المعتدين ، وهجمتهم لم تحل دون وقوف المؤرخين من هذه الاحداث الموقف الانساني ، ان جماهير بغداد البطلة التي خرجت لصد

هذه الهجمة وهي تقدر الاعداد الضخمة التي اندفعت لاكتساح المنطقة كانت تمثل الصورة العربية البطلة وهي تؤكد وجودها القومي وتحقق ذاتها الانسانية .

ومن الطبيعي ان تسجل الاحداث بطولات فردية نادرة كانت تتميز من خلال المعارك ، وتندفع من اواسط الجماهير لتصد عنها الهجمة الظالمة فهذا الشاعر ابو زكريا يحيى بن يوسف الصرصري البغدادي كان ضريرا وله اشعار في تسجيل احداث النكبة . وحين وصل التتر الى بغداد سنه ٦٥٦ خرج اليهم يحمل عكازته ، ويحرض الناس على القتال ، ويدفعهم الى الجهاد والتضحية ، ويروى انه استطاع ان يقتل منهم بعكازته نحو اثني عشر رجلا ثم قتلوه شهيدا برباط الشيخ علي الحباز .

ومن اشعاره في محاربة التتر قوله ..

وكم قمعت بالنصر والقهر في الوغى
رجالك خيل المشركين وفلت
بوعدك نرجو النصر يا سيد الورى
على عصبة من خطة الرشد ضلّت

اتت تبتغي دار السلام بكيدها
فلما رأت اجنادك الغرّ ولّت

وقال في ابيات اخرى يمدح الرسول عليه الصلاة والسلام ويشكو عصره ..

اشكو اليك رسول الله ما أجد

من الخطوب التي أعيا بها الجلـد

وفتنة التتر العظمى التي قرحـت

منا لوقعتهـا الاحشـاء والكبـد

رمت صميم القـرى منها بفاقرةٍ

لم ينج من شرها مال ولا ولـد

أودت بمن حولنا فتكا وليس لنـا

الا الى وحدك الميمـون مستنـد

ان توجه الشعر في فترة القرن السابع الهجري نحو الالتزام بالمواقف القومية والانسانية التي فرضتها طبيعة المرحلة ، ودخوله معترك الحياة السياسية والفكرية التي استهدفت اصل الامة وحاولت انهاء وجودها بشل توجها بارزا في طبيعة العصر ، ويمثل استقطابا لجملة المشاعر التي كانت تمارس التعبير من خلال المظاهر اليومية او التوجهات الثقافية المختلفة ، لان اسلوب التحدي الذي تعرضت له الامة كان اسلوبا عنيفا ومكثفا ، تعاونت على توحيده عوامل كثيرة وخلقته ظروف عصيبة ساهمت فيه طبيعة الحكم ، وعدم اخلاص العناصر المسؤولة ، وتمزق الجماهير ، وابتعادها عن التخطيط الهادف الذي مارسته هذه الجماهير خلال الازمات التي تعرضت لها . ولعل دراسة موسعة لهذا الجانب تكشف عن تلك العوامل لتجعلها نموذجا للتداعي ، وصورة للاعتبار .. ولكن الذي يجب ان يؤكد هو ان الشعر ومن ورائه جموع الشعراء التي ادركت ان الخطر الماحق اصبح وشيكا ، وان جحافل الغزو بدأت تهز كيان الدولة بعد ان تحركت جموعها نحو اربل سنة اربع وثلاثين وستمائة فعاثوا فيها نهبا واسرا واحراقا وتخريبا ولكنهم رحلوا

عنها راجعين ، قد وضعت هذه المجاميع من الشعراء نفسها في خدمة هذا التوجه ، وبدأت تدرك ان شرا مستطيرا ينتظر هذه الامة ، وان خرابا عظيما يتهدد حضارتها ، وان امرا كبيرا يعد لها . فانطلقت تحذر من وقوع النكبة ، وتنبه على دفعها والوقوف بوجهها لاحباطها فمما قيل قبيل الحادث[٣] .

قل للخليفة مهلا
اتاك ما لا تحب

ها قد دهتك فنون
من المصائب غرب

فانهض بعزم والا
غشاك ويل وحرب

كسر دهتك وأسر
ضرب ونهب وسلب

ان صرخة الشعر تعني التزامه وادراكه لمهمته ، وتعني استشفافه للاحداث ، ورؤياه البعيدة لوقوعها ، ومخاوفه من النهاية المؤلمة المنتظرة التي لا تقتصر على الخليفة وحده وانما سيعم الشر ويسود الهتك والاسر والضرب والنهب والسلب ، وعندها تتحول الدولة الى ميدان صراع ، ومجال انتقام . وهي رؤيا كانت في موقعها ، وتوقع يؤشر البعد الفكري الذي عبر عنه الشاعر وهو لم يكن بعدا فرديا ، او تخوفا ذاتيا وانما يعني تيارا واسعا كان يتحسس النكبة وجماهير غفيرة كانت تتوقع المأساة . وقد عبرت عنها بهذه الصورة ، وسجلتها

من خلال التوعية الشعرية . ان صرخة الشاعر هذا لم تكن الوحيدة فهناك شاعر آخر هو المجد النشابي ينذر ويحذر ويدعو الى الاصلاح ويحدد اطراف الفساد ، ويؤشر مراقع الضعف ويسمى الاشخاص باسمائهم وما يقترفون من آثام ، ويرتكبون من معاصي ، منطلقا من حرصه واخلاصه لهذه الامة التي ظلت اعمدة وجودها قائمة ، ومعالم انسانيتها لا ينكرها منكر . فيقول(٤) ..

يا سائلي ولمحض الحق يرتاد
أصخ فعندى نشدان وانشاد
واسمع فعندي روايات تحققها
دراية واحاديث واسناد
فهم ذكي وقلب حاذق يقظ
وخاطر لنفوذ النقد نقاد
عن فتية فتكوا في الدين وانتهكوا
حماه جهلا برأى فيه افساد
اذا ترامت امور الناس ليس لهم
فيها دواء ولا حزم وانجاد

وبعد ان يحدد الجهات المسؤولة وما تقوم به تحديدا يؤكد انصرافها الكلي عن المهمات الموكلة اليها يقول :

يا ضيعة الملك والدين الحنيف وما
تلقاه من حادثات الدهر بغداد
اين المنية مني كي تساورني
فللمنية اصدار وايراد

من قبل واقعة شنعاء مظلمة

يشيب من هولها طفل واكباد

ان هذه الاصوات كانت تتعالى لتعلن الرفض ولتؤكد الواقع المؤلم ولتحدد المسؤولية القومية التي ضاعت في زحمات احداث الفتن ، وتبددت في غمار الفوضى وانصراف المسؤولين الى تطمين المصالح الفردية . انهم كانوا يعلنون رفضهم بكل جرأة لانهم كانوا يعلمون عظم المأساة التي سوف يتعرضون اليها ، ويدركون الفواجع التي ستحل ومن هنا كان التزامهم التزاما مسؤولا ، وكان اندفاعهم اندفاعا قوميا واضحا.

أن جرأة الشعراء في مقارعة الواقع ومجابهة السقوط الذي تتعرض اليه الدولة ومعالجة التدهور الذي كانت تنحدر اليه يمثل موقفا قوميا سليما لانه يسجل الرفض الادبي والانساني ، ويمثل موقفا جريئا وجديا لانه يصارح قوى البغي وهي تملك وسائل القتل ، ويكشف عن ظلمها ويجاهر بمعاداتها ويدعو الى ايقاف زحفها وهو في الموقفين مرحلة نضالية متقدمة ، ونموذج كفاحي متميز . اكتسبه الشعراء من خلال الممارسة النضالية التي كانت تتكرر منذ المراحل الاولى للغزو التتري ، واصبح صورة من صور الجهاد ، وقاعدة من قواعد الدفاع عن العاصمة العربية الاسلامية بغداد ، ولعل تنوع اساليب التعبير التي كانت تعالج المسألة ، واختلاف مناهج الوصول الى الهدف تمثل المنطلقات التي كانت تنطلق منها صيحات الشعراء وهم يلتقون عند الدفاع عن الارض والحفاظ على التراث ، والوقوف بوجه المعتدين والدعوة الى الكفاح من اجل طرد الغزاة واستعادة المجد الضائع .. واذا قدر لبعض قصائد الشعراء ان تستقل في

معالجة هذا الغرض او تتابع احداث الفاجعة ، او تفصل في المسائل التي عرضت لها فان ذلك يعني ان عملية المقاومة واستثارة المشاعر وتأليب القوى كانت تأخذ شكل التنظيم وتلتزم بالتوجيه القومي الذي يفرض على الجماهير التصدى .

ان موقف الشعر والشعراء من احداث الهجمة المغولية وما رافقها من تخريب وتدمير وسلب طوال الفترة التي امتدت حتى سقوط بغداد يمثل انعطافا في حركة الشعر العربي ، وتوجها جديدا في معالجة تلك الاحداث ويمكن ان تأخذ الحركة اشكالا تتمثل في : الاحساس بجسامة الخطر المغولي ، والتوقعات التي يمكن ان ترافق هذا الخطر والنتائج المترتبة التي يمكن ان تخلقها والرؤيا الثاقبة التي استطاع الشاعر تحسسها من خلال متابعته لهذه الاحداث وادراكه لواقعها وتمكنه من تلمس هذا الواقع الذي رانت عليه بوادر الضعف ، وتمثلت في اسبابه عوامل التدهور ، وقد استطاع الشعراء ان يرسموا الجانب النفسي الذي اخذن آثاره تملأ عليهم آفاق الحياة بعد ان بدأت الثقة تتزعزع وهم يسمعون الخبر المفجع ، ويتابعون الحدث المريع ، ولابد ان يكون الجانب الاعلامي المضاد قد لعب دوره في هذه المعركة وقد تمثل في تجسيم الاحداث واضفاء طابع التهويل ، واقترن بصياغات حربية مبالغة ، ضاعفت من تأكيدها صور الرعب ، وحوادث الفزع ، ان الانتاج الشعري حاول ان يكشف ولو بشكل غير مباشر عن هذه الاحوال ، وحاول ان يمرّ عليها من خلال العبارات الخفيفة لتأكيد القدرة على المجابهة، وتثبيت صورة التمكن من الوقوف والتحدي، ولعل تأرجح الاقوال بين اليأس والرجاء ، واهتزاز المشاعر بين الاقدام والاحجام

وتقلب الامال بين التحقق والضياع تحدد لنا الواقع النفسي الذي اصبح طابعا متميزا في مرحلة الشعر هذه ، وصار سمة من السمات البارزة لتوقعات الجماهير .. فالصرصرى الشاعر الذي مر ذكره يؤكد ذلك في ابيات له فيقول :

ودارة بيضة الاسلام ليس لها
بوعده من جميع الناس منتهبُ

ونحن أمته ما صدنا رهب
عنه ولا غالنا عن حيه رعب

فليخسأ التتر الطاغون من فئة
لها الصغار وذل القهر والعطب

بوعد احمد خير الناس من خضعت
له الملوك وحلت دونه الرتب(٥)

لقد ظل الشعر في مرحلة التهيء يشق هذا الطريق ، وظلت معانيه تدور في أطار التحول النفسي الذي صاحب عملية التردد ، وبقيت مشاعر الشعراء تتأثر بما يشاع او ينشر او يسمع ، وهم يجابهون اعداء اشداء ، وينتظرون جحافل جرارة ، ويتحركون في حدود امكانات غير مؤهلة لهذه المجابهة ولا قادرة على صد هذه الجحافل . وكانت الاخبار تتوالى وصور النهب والقتل تستحوذ على معظم هذه الاخبار ، فهم يغيرون على المدن فيتركونها خالية مقفرة ويتقاطرون على القرى والارياف فيعيثون فيها فسادا ويملأون قلوب اهلها رعبا . ومن الغريب ان يسود الاعتقاد بانعدام قدرات الناس على المجابهة ، وهنا يلوح الجانب

النفسي الذي خلقه الاعلام المغولي ، وتغل السواعد فهي عاجزة عن اشهار السلاح ، ضعيفة عن التماسك . وتذل النفوس فهي خائرة لا تستطيع المقاومة ، وقد ترك هذا الاعلام الاثر الكبير في قلوب الممالك التي اجتاحتها جيوشهم حتى طغت على اخبار المؤرخين وكانوا يذكرون امثلة لذلك فابن الاثير المؤرخ يقف عند هذه الظاهرة وقفة طويلة ، ويجعلها مبررا من مبررات الانتصار ، ويؤكدها من خلال احاديثه التي يعرضها ويقرنها بظاهرة الرعب التي صاحبت هذا الفتح ، وسارت في ركاب الجحافل المغولية ، والذلة التي تمكنت من قلوب الناس ، واخذت موقعها في كل حديث وعند كل حادثة وفي اعقاب كل خبر يساق عن تلك الجيوش فمن الاخبار التي اوردها قوله « وسمعت من بعض اهل مزاغة ان رجلا من التتر دخل دربا فيه مائة رجل ، فما زال يقتلهم واحدا واحدا حتى أفناهم ، ولم يمد احد يده اليه بسوء »[٦] والخبر بصورته هذه يثير الاهتام ويبعث على التساؤل وان اخذه بهذه الصورة ، وسماعه وفق هذه الصيغة يدعو الى مناقشته وتحليله والوقوف على مدى صحته ، فالسماع من بعض الناس لا يعني الثقة ، والقتل بهذا الشكل من قبل شخص لهذه المجوعة حكاية ليس من السهل تصديقها . ولكن الناس كانوا يتناقلونها دون مناقشة ، ويقبلونها دون تمحيص فالجو السياسي مضطرب ، والواقع النفسي مؤهل لاستقبال هذه الاشاعات ، وضعف الثقة في النفوس كانت تؤكد مثل هذه الاخبار ، وتؤيد وقوعها ، ولعلها كانت تمثل الدعوة الى الاستسلام والانصراف عن القتال ..

لقد كانت الصورة في نفوس الشعراء واضحة ، وكان ادراكهم لها ادراكا يوحي بالنتائج التي تترتب عليها ومن هنا كان توقعهم لما يمكن

ان يكون قريبا من الصورة التي وقعت ، واستشفافهم لما سيحدث مطابقا ، لانهم استطاعوا الوقوف على دقائق المسائل واستطلعوا الاحوال المحيطة ، وميزوا بين الاشاعة وما يصاحبها ، والخبر وما يضاف اليه . ثم بدأوا يدعون الى ما كانوا يطالبون به دفعا لما سيحدث ، وحرصا على المجد الحضاري لهذه الامة ومن هنا كانت صرخاتهم تتعالى لايقاف هذا الزحف وصد تلك الجيوش ، ومنعها من التوغل ولعل بروز العامل الديني ومحاولة استلهام الاحاديث التي تؤكد الانتصار والحكايات التي تشير نوازع السيطرة تمثل المردود الايجابي لهذا الاحساس ، وقد اخذ الشعر على عاتقه هذه المهمة وبدأ يغذي هذا الجانب ويقويه في النفوس محاولا بذلك تخفيف نوازع الخوف ، وتقليل تأثير الدعاية ، وانهاء اسطورة السيطرة المغولية التي وصلت حدا من المبالغات وقد لعب الشعر هذا الدور بجدارة فهذا عبد الحميد بن ابي الحديد الشاعر المعاصر لهذه المرحلة يسجل لنا هواجسها ويؤكد صدق الاحساس الشعبي ويخاطب الخليفة المستنصر بالله سنة ٦٣٩ عندما كان الخليفة يستعد لهذه الغزوة لصد الخطر ودفعه عن الدولة فيقول(٧) :

تغر الترك آمال طوال
تسوق اليك اعمارا قصارا

اماني النفوس تغر حتى
تضرّ كخمرة جلبت خمارا

بعثت اليهم حمر المنايا
وبيض الهند والاسل الحرارا

وجيشا لم يُقد كسرى بن كسرى
مماثنه ولا دارا ابن دارا
ترقرقت الدموع فقيل ماء
واومضت السيوف فخيل نارا
خلعت به قلوب الشرك لما
خلعت به على الدنيا ازارا

.....

تخير أيها المغرور منه
فرارا او هلاكا او اسارا
فكم بطل به بطلت قواه
وجبار غدا دمه جبارا
فلا زالت سيوفك يا ابن عم النبي لكل معركة منارا

وقد بقي الشعراء يحركون هذه الاوتار ، ويخففون غلواء المعركة الاعلامية التي سيطرت على كل النفوس ، واستحوذت على الفكر ، وشلت قدرة المقاومة ، وحاولت ان تنهي معنويات هذه الجماهير باخبار طويلة تسبق الغزو ، وتتقدم الجيوش ، وتبث من خلال الاخبار ، على ان رد الفعل الذي خلفته هذه المعركة ومحاولة استرداد الثقة بالنفس كان اكبر من الحجم الحقيقي ، وكانت اشكاله تتجاوز الصورة المعقولة، وقد تجلى ذلك في الصور الشعرية المقدمة من قبل الشعراء وهم يعرضون لهذه الاستجابة ، وربما كان الشعراء يريدون ايقاف المبالغات التي صاحبت الحملة بمثلها ، لبعث الثقة بالنفس وتأكيد القدرة على المجابهة ، ويبدو انهم وقعوا في الخطأ ، وهي صورة قريبة من صور

الشعر العربي الذي حاول معالجة القضية الفلسطينية فاعطى جوانبها صورا من المبالغة والمغالطة ، واضفى على اطرافها من صور التمكن مالم تكن قادرة على ادائه فكانت مشاركته في المأساة لا تقل عن مشاركة الشعر قبل سقوط بغداد في مأساة سقوطها واحل ابيات عبدالحميد بن أبي الحديد الذي وصف فيها جيش المستنصر وهو يستعد لمجابهة الغزو خير دليل على هذه المبالغة حيث يقول :

سد المذاهب بالجيوش على العدى
فكبعد نيل علاه بعد المهرب
بعرمرم بالخافقين مخيم
وعلى دراري النجوم مطنب
تتقاعس الافلاك ان لم تنفطر
عنه وتردى الشمس ان لم تهرب
يغشى النواظر ضوؤه فكأنه
شم شوامخ من حديد أشهب
وكأنما اسيافه في عارض
وكأنما راياته في كبكب

ان صورة الجيش التي تقدم وفق هذا الشكل وبهذه الصورة الواسعة التي خيم فيها على الخافقين وشدت حبال خبائه بدراري النجوم بحيث تتقاعس الافلاك ان لم تنفطر عنه والشمس تهلك اذا لم تستطع الهرب ، وقد ملأ الانظار ضوؤه فبدا شامخا كأنه حديد اشهب ، وامتدت اسيافه من جبل عارض في اليمامة الى راياته في جبل كبكب خلف عرفات والبعد بينهما معروف .. ان هذه الصورة كانت بعيدة عن واقع الحال ، وبعيدة

عن الامكانات التي يستطيع الخليفة ان يضطلع بها ، ومضللة للجماهير التي كانت تعرف الواقع وتتحسس النتيجة .. فهي صورة شاركت في التخدير الى حد ما ، وشاركت في الاسترخاء النفسي والاستكانة الفكرية التي كان بامكانها ان تغير الموقف بعد ان اخذت على نفسها الموقع الحقيقي . على ان هذه الصورة بدأت تتغير بعد ان تحسس الشعراء الموقف ، وتثبتوا من الوقائع ، وعرفوا بأن حدود القدرة اقل من هذا التصور ، وخاصة بعد ان وقعت المجابهة الحقيقية ، في اربل ، فتركت المدينة خاوية بعد ان وطأتها سنابك الخيول التترية وادمت قلوب اهلها سيوفهم الحاقدة . ومزقت جثث ابنائها الرماح المتعطشة الى الدم ، فعم فيها الخراب ، وانتشرت الحرائق ، وتناثرت الجثث ، وقتل من اهلها جمع غفير ونجا منهم من هرب . ان هذه المجابهة المفجعة هزت الواقع النفسي لكل الجماهير وحركت عنصر العقل ثانية ، ودفعت الشعراء الى اعادة النظر في المواقف السابقة لاسترداد ما سلب وتقوية ما ضعف وتأكيد العزائم في نفوس اهل النخوم لحملهم على المقاومة ودفعهم الى خوض المعركة بقدرات عالية ومعنويات مشدودة . ولم يجد الشعراء وسيلة اقرب من دعوة الجهاد لانها السبيل الوحيد لاستثارة الهمم ، وتحريك المشاعر ، واستنقطاب الجماهير التي بدأت تقف على حقيقة المسألة ، وتتفحص الابعاد الفاجعة لهذه الهجمة .

لقد ترك الشعر اثاره في تقديم بعض الجوانب الاجتماعية والنفسية التي سادت الفترة وان اشارات الشعراء لهذه الجوانب تكشف عن طبيعة التفكير وطرق المعالجة وتحديد بعض الضوابط التي كانت تأخذ مكانتها في النفوس ، وهي انعكاسات مضطربة ، واحوال غير مستقرة

كانت تتخبط في اتونها هذه الجماهير ، وتتحرك في حدود دائرتها ، لانتزاع الموقف المناسب ، واتخاذ الوضع المؤهل لمجابهة التحدي ، وقد اكد الشعر حالات القلق المستحكمة ، واوضاع الضياع المتمكنة وهي تنشر ظلها الثقيل ، وتطبع كل تحرك ، وتأخذ بزمام كل خطوة تحاولها . وقد رصد الشعراء هواجس الناس ، وتطلعاتهم وحاولوا ان يكونوا دقيقين في رسم بعضها ، لانها كانت تمثل المحور الحقيقي لتكثيف المشاعر ، والمرتكز الثابت في تحديد الحركة التي يريدون الاقدام عليها ، وبالتالي تمكنهم من القدرة على تقديم الحلول الصائبة ، والخطوط الواضحة لحركة الدولة في هذا الخضم الكبير ، لانهم يتمكنون من الوصول الى المركز الحساس ويستطيعون اسماع اصواتهم لمن يمتلك القدرة على تحريك الموقف .. ان شعراء الفترة بما تركوه من قصائد متباعدة ، ومعالجات قليلة ، لان الضياع قد ذهب باكثرها ، استطاعوا ان يقدموا نموذجا لريادتهم في ميدان التوجيه ، على الرغم من تأرجحه ونموذجا في مجال القيادة على الرغم من صعوبة الظروف وقسوة الاحوال. وقد ظلوا امينين على هذه الريادة والقيادة عندما بدأت الازمة تشتد ، والفاجعة تقترب ، وجحافل الجيوش الغازية تتمادى في نشر فظائعها وتغالى في انتهاك الحرمات . وما تحولهم الى حديث الجهاد ، ودعوتهم الى الالتزام بها الا دليل من ادلة هذا التحسس .. فقد وجدوا فيه عنصرا لتجميع القوى ، وملتقى تنتهي اليه الافكار ، وطريقا تصب فيه روافد الاخلاص لهذه الامة منطلقين من مبادىء الاسلام التي استطاعت ان تضع هذا الهدف في كثير من مراحلها غاية اساسية من اجل التحرير ، ومن اجل دفع الظلم ، ومن اجل نشر العدالة ، واخيرا فان

الجهاد يصبح حقا مشروعا عندما تحاول جحافل الطغاة ان تدوس باقدامها الارض العربية ، وتستبيح معاقل الحضارة ، وتفتك في بناتها واحفادها وهنا وجد الشعراء انفسهم يعودون الى المعركة بشكل جديد ليحملوا الراية كبيرة خفاقة لبث الدعوة ، ونشر راية الجهاد .

فهذا شاعر اربلي هو اسعد بن ابراهيم يخاطب الخليفة المستنصر بالله ويدعوه الى اعلان الجهاد ويطلب منه ان يقوم به بالعزم والتصميم بعد ان اخذ الخليفة على عاتقه مبدأ التأهب للعدى والاستعداد لمقابلة المغول فيقول :(٨)

وهذا جهاد انت كافل نصره
فقم فيه بالعزم المصمم واحكم
لانك ابدأت التأهب للعدى
ولم يبق عذر للجهاد فتمم

ويعود اليه في قصيدة ثانية وقد استقرت بعض احوال الناس ، وتأيد لهم ان المعركة الحاسمة وشيكة ، وان النصر واقع لا محالة ، ويحاول الشاعر ان يبرر تأخر النصر بالقدر الذي يختار الموعد ، ويدفع صورة التأكيد هذه عن طريق ربط الغزو بعصر الخليفة ، وان هذا التوافق فيه نظر ، وهي محاولات اراد الشاعر من ورائها ان يقوى عزم الخليفة ، ويثبت اقدامه في الاستمرار ، كما حاول الشاعر ان يشد بين نصر الرسول عليه الصلاة والسلام والخلفاء الراشدين في الوقائع التي خاضوها وبين فريضة الجهاد التي شاركت في الاندفاع ، وحققت الانتصار لما تبثه في نفوس المجاهدين من معان تحملهم على التضحية والبذل وتدفعهم الى خوض غمار الحرب بلا تردد فيقول :(٩)

بيمن رأيك يرجى النصر والظفر
وباهتمامك ينفى البؤس والحذر
وفي حماك ذمام الله متصل
وفي يمينك سيف الحق مشتهر
فان تأخر قصد أنت طالبه
فسوف يأتي بما يختاره القدر
وما يفوتك ما تبغيه من غرض
وبرق عزمك في أنيابه المطر
ما سبب الله هذا الغزو في زمن
انت الوزير به الاله نظر
لأنه منحة ترجى جوائزها
يوما ترجى به الحسنى وتدخر
لولا الجهاد لما اضحى النبي به
في كل واقعة يعلو وينتصر
ولا تسامى ابو بكر ولا عمر
ولا غدا حيدر بالبأس يفتخر

ولم تمض سنة على غزوة اربل التي استبيحت بها المدينة حتى ذاعت اخبار غزوة جديدة يزمع المغول القيام بها ، لاستباحتها ثانية ، ولتأكيد قدرتهم على الغزو في أي وقت يشاؤون ، ولتهديد دار الخلافة ولاعلامها بقوتهم وسيطرتهم ، وتأخذ هذه الاخبار دورها ، فينتشر الرعب بين اهل المدينة المنكوبة ، وتعم الفوضى ، ويسود الخوف ، وتبدأ قوافل السكان بمغادرتها الى حيث المكان الامين ، واني لهم مثل

هذا المكان . ولابد ان يقف المتابع وهو يرى الصورة البائسة التي اصبحت عليها الدولة ، والواقع المؤلم الذي تعيشه هذه الجماهير وهي لا تعرف المصير ، وقد فقدت املها في الحياة ، وهنا يعدل المغول عن غزو المدينة ، ويستبدلون بغزوها مدينة اخرى ، وتستباح هذه المدينة استباحة اربل ، ويخرج ابناؤها هائمين على وجوههم من شراسة الهجمة ، تاركين فيها من لا يقدر على الهرب ، وتبقى تحت عبثهم فترة من الزمن . تعاني من مذلة الاحتلال ، وتقاسي من صرامة الغزاة ويجدون الطريق الى بغداد مفتوحا وجحافل المنهزمين من ابناء السواد يندفعون اليها اندفاع التيار ، فتختنق طرقاتها ، وتضيق بهم المساكن ، وتتضاعف اجرتها ، وتزداد احوال الناس المعاشية ارهاقا ، وهم في دائرة اخبار متضاربة ، واحوال يائسة ، ووضع نفسي متأزم ، يهزهم الخبر ، وترجف بهم الكلمة ، وتنتزع الثقة منهم الرواية الباطلة وتدخل الى قلوبهم الفزع الحكاية المختلقة . في هذا الجو المضطرب وفي مثل هذه الحالة الصعبة ، تتوارد اخبار المغول وهم يزحفون نحو بغداد .

وهنا ينبري الشعراء مرة اخرى للوقوف الى جانب هذه الجماهير التي كانت تنتظر الامل ، وتسعى الى استعادة الطمأنينة لتقف صامدة قوية ، ويتسابق الشعراء لهذه المهمة . محاولين استثارة العزائم ، واستلهام الاحداث ، واستذكار ايام الانتصار وتتكاتف هذه الجماهير ، وتشتد عزيمتها ، وتندفع لمقاتلة المغول الذين حاولوا ان يغزوا بغداد في عقر دارها ، وقد بلغ جيشهم عشرة الاف جندي ، وهنا يتزاحم الأبناء الغيارى دفاعا عن شرف الارض ، وتتكاتف السواعد المخلصة ذودا عن الكرامة الحرة وتتعانق القلوب المخلصة من اجل سيادة الامة ودفع

الموقف الى الصورة التي تعيد الى هذه الجماهير ثقتها وقدرتها في النصر وتثمر هذه الجهود وتستعد جماهير بغداد ومن وقف الى جانبها لصد الحملة ، وايقاف الزحف ، ورد الاعتداء ، ويكتب لهذه الجماهير الانتصار ويكتب لحملة المغول الهزيمة بعد ان عجزت عن تحقيق مطامحها ، ولابد ان يصاحب الواقع الجديد تطلع سياسي جديد ، وتواكب الأحداث مشاعر قومية ، معبرة ، تحسست معالم الانتصار ، وتذوقت اهازيج النشوة بهذا الفتح ، ولعل الجانب النفسي الذي بدأت اثاره تتضح من خلال المعاناة الجديدة قد لون الحياة بالوان تفاؤلية حادة ، وعمق نوازع الانفعالات بما يحقق تأكيد القدرة ، ويشد على الترابط بين عناصر الامة من اجل الحفاظ على الاصالة، الى جانب الترابط الاجتماعي الذي الف بين القلوب ووحد بين المشارب ، ووفق بين المطامح ، لان المصير المشترك الذي احاط بابناء الامة جعلهم يدركون جسامة الخطر ، وفضاعة المأساة والنتائج المنتظرة اذا قدر لهذه الجحافل ان تقتحم المدينة .

ان هذه العوامل قد حفزت الشعراء الى تمجيد النصر ، وتخليد الصمد ، ومكنتهم من خوض غمار المعركة وتسجيل احداثها ، وما تركته من اثار في النفوس ، وكانوا يعكسون بذلك واقع الانسان العربي الذي استعاد لنفسه الثقة وقد استطاع عز الدين عبدالحميد بن ابي الحديد الشاعر المعاصر لهذا الحدث ان يعبر عن ذلك فقال :

فرّجت غمرتها بقلب ثابت
في حملة ذعرى ورأى ثاقب

ما غبت ذاك اليوم عن تدبيرها
كم حاضر يعصى بسيف الغائب
عمر الذي فتح العراق وانما
سعد حسام في يمين الضارب

ويشارك الشاعر الصرصرى بن ابي الحديد هذه المشاعر فيؤكد قدرة هذه الجماهير على الوقوف بوجه الهجمة ، وصدها فيقول :

جاءت بعصبتها الطغاة تروم من
دار السلام محطة تستشمع
فدنوا فصفوا شر جيش ضلالة
بازاء جيش بالهدى يتدرع
وعووا عواء الكلب فوق سروجهم
وهم احق بوصفه ليروّعوا
فلقوا اسود الغاب لا تخشى الردى
والراسيات الشم لا تتصدع
فنجوا بليل لا نجوا لو اصبحوا
لعفتهم للحرب ريح زعزع

فالصورة في ابيات الشاعر ما تزال موثوقة ، وقدرة الناس ما تزال تمثل التحكم في الموقف ، وان الامل الذي حققته اولية النصر ما يزال يشكل البداية لاسترداد الثقة ، والسيطرة على تحريك الموقف وفق الشكل الذي تريده الجماهير ، لانها خاضت تجربة ، وسجلت انتصارا ، واستعادت ارضا ، ودحرت خصما ، وفي كل هذه المسائل تتعزز القدرة القتالية ، وتتكاثف مشروعية الدفاع من اجل الحياة ،

ويتعالى صوت الحق الذي اخلص الشعراء في تجسيده ، وسعوا الى تأكيده ، وآمنوا بانطلاقة الناس من اجل تحقيقه .

لقد بقيت مشاعر الاحساس بالقوة تمد حركة الشعب لفترة من الزمن، وبقيت قدرةهذا الشعب على الرغممن ضآلةالاندفاع نحو تأكيد الثقة ــ تتوق الى حسم الموقف مع قوة الغدر الغازية ، وتتطلع الى الاندفاع من اجل تصفية الواقع ، على الرغم من اختلال التوازن بين القوتين . وبروز الفروق بين الكتلتين المتصارعتين . ولكن الجماهير كانت تشعر بان الصورة التي تحيط بها غير مستقرة وبان الواقع البائس اصبح لا يطاق ، فالامور تجري وفق اشكال غير مرسومة والبلاد يسودها الاهمال وتتنازعها الاهواء ويعمها الخراب والضياع . ولعل ابيات الشاعر التي كان يستشهد بها توحي بعمق المأساة التي كانت تعانيها هذه الجماهير وفقدان الثقة التي اصبحت سمة متميزة في هذا العصر .

كيف يرجى الصلاح من أمر قوم
ضيعوا الحزم فيه أى ضياع
فمطاع الكلام غير سديد
وسديد المقال غير مطاع

لقد كان الجو النفسي الذي تعيشه هذه الجماهير مهيئا للتراجع امام هجمة المغول ، وكانت صور الاحداث توحي بالتراجع ، ومنطوق المعارك يؤكد النتيجة التي تنتظر هذه المدينة الصابرة ، وتنتظر هذه الجموع التي اصبحت لا تملك من امرها ما يجعلها قادرة لرد هذا الاعتداء الواسع ، ولكنها وجدت نفسها مضطرة للمجابهة ، فالعدو يحمل اليها الغدر والحقد والفواجع ، ويعد لها الموت ويدبر لابنائها

الغدر والخديعة ، وتطبق اعداده الهائلة على اسوار المدينة ، وتحاول الانقضاض عليها ، وتدور معركة غير متكافئة تنتهي لصالح القوى التترية ، وتتراجع بقية المحاربين الى بغداد حاملة اليأس والموت تاركة وراءها جثث قتلاها .. ويستجمع الخليفة امره ، ويلتفت شمالا ويمينا لعله يجد منفذا يخرج منه ، او منقذا يدفع عنه اخطار الاكتساح ، وقد اهتدى اخيرا الى ارضاء الغزاة بما يملك من اموال ، ولكن الحقد كان اقوى من المال ، واعنف من الاستسلام الهادىء ، وفي غمرة مؤامرة خبيثة ، واحتيال مدبر ، واتفاق مسبق يتقدم موكب الخليفة يحف به ابناؤه واعيانه ليعلن تسليم المدينة الخالدة . ولم يرض هذا غرور الغازي المتمكن ، ولم يكبح جماح جبروته الدامي فطلب من الخليفة ان يأمر سكان المدينة بوضع اسلحتهم ، وترك منازلهم ، والخروج الى المغول لاحصائهم ، وتستجيب الجماهير لهذا النداء اليائس ، وتستسلم لمشيئة القدر الظالم ، فتخرج عزلاء من السلاح ، مجردة عن كل ما يدفع عنها غدر معتد ، أو اعتداء متجبر ، او ضربة مستعمر ، فكانوا افواج رعب ، وزمر هلع . وقوافل استسلام بريئة . فاستقبلتهم سيوف التتر ، وتوالت عليهم اسلحة الغدر ، واندفعت نحوهم النفوس المتعطشة الى الانتقام ، فاستشهدوا ضحية غدر ، وقتلوا نتيجة تآمر ، وبعدها اندفعت جحافل المغول نحو المدينة الصابرة ، وكان ما كان من مآسٍ وفواجع .

ان الشعر لم يترك هذه المأساة وما احاط بها من اساليب ، ومن شارك في وصولها الى مرحلتها اليائسة فقد عبر الشعراء عن ذلك من خلال القصائد التي وصلت ، واشاروا فيها اشارات تدل على ملامح

الصورة التي كانت تبدو لهم ، والوان الاحاسيس التي كانت تبرز ، وكانوا جريئين في تحديد المسؤولية ، وصريحين في تثبيت الاسماء ، وصريحين في تشخيص المسببات التي اودت بالامة ، وجرت على المدينة الصامدة فواجع الانتهاك .. فهذا شاعر يرى رأيا واضحا ، ويبين اسبابا موجبة للسقوط فيقول :

ان الخليفة عبدالله لم يك ذا
رأى ولا مستقيم العقل والسير
ظن المصلى مصلى الطير حين تلا
ووتره وترا والزمر كالزمر
لا المال داری به اذ كان ينفعه
ولا استعد لهم بالعسكر المجر

فهذا حديث صريح تناول الرأى الذي عولجت به هذه المسألة، ويبدو ان الشاعر قد جرد الخليفة منه ، ونعته بعدم استقامة العقل والسيرة ، وهي اسباب لم يذكرها الشاعر مجردة وانما حاول ان يقوى هذه الحجة باسباب عرفت عن الخليفة ، وقد انصرف لها ، كما ان المال الذي كان يجب ان يدارى به نفسه ، ويصلح به شأنه ، ويستخدمه من اجل اعداد السلاح ، وتهيئة الجيش ، قد اهمله وتركه ، وتصرف به تصرفا لا يمت الى هذه الامور بصلة . فالشاعر له وجهة نظره ، وله رأيه الذي علل به السقوط ، وهو رأى لابد ان يمثل مجموعة آراء كانت مطروحة ووجهة نظر كانت سائدة آمن بها البعض ، وجاهر بها البعض الاخر ، ولكن الامور كانت تجري وفق اشكال بعيدة عن هذا التوجه فتحملت الجماهير خطل هذه

انسياسة ، ووقعت المدينة في قبضة التدمير والهلاك ولكن الشعر والشعراء كانوا جريئين في المجابهة ، صريحين في الالتزام ، مخلصين في تحديد المسؤولية التأريخية ، وهو موقف مشهود ، وموقع له اهميته في دراسة الحدث وفي اعادة النظر في المقولات التي الحقت بالعصر وبشعرائه .

ويتعالى موقف الايمان بالحق ، وتتحدد معالم الصورة الاساسية التي اخذ الشاعر بها نفسه ، وتتخاذل جموع المستضعفين ، وتبدو ملامح المهادنة وتندفع عناصر الخيانة التي تريد بالامة الفناء ، لتزيين الموقف المهزوم ، وتحبيب فكرة الاستسلام وتجد الفكرة لدى الخليفة قبولا وهو غير قادر على المجابهة فتذلّ النفوس وتقهر ارادة الجماهير وتساق جحافل الناس لتعلن الولاء للغازى المتجبر وترتدي قضية الشعب ومصير الامة رداء الهدنة الكاذب والجماهير تدرك ضعف هذا الحجة ، وستشعر ضعف الموازنة بين غاز متجبر وسلطان متخاذل ، فيعبر الشعر عنها باحساس الشاعر الواعي حيث يقول :

حتى اذا حنقوا من فعله ورأى
تهدّم السور والنشاب كالمطر
وافى يهادن ليث الغاب واعجبا
اهدنة وهو بين الناب والظفر

ان صورة الاغتراب التي لازمت الجماهير بعد سقوط بغداد لم تكن بعيدة عن حركة الشعر العربي عبر امتدادها الطويل ، وخلال مسيرتها الانسانية . فالشاعر العربي كان يعاني الغربة في ارضه لفقدان الصلة بينه وبين من يعيش معهم ، وقد خلف لنا هذا الشعور سيلا من

الشعر ، لان الشعراء وقفوا فيه عند قضية العصر الراهنة ، قضية الوجود الانساني ، ومن هنا كان نعي الطلل الذي اقفر والارض التي عفت رسومها ، وزالت معالمها والصمت الذي احاط بكل جزء من اجزائها ، والموت الذي اطبق على جوانبها ، وأمات فيها كل شيء ، كانت هذه الصرخات تتعالى بعد كل عاصفة تجتاح حياته لانها اصبحت تمثل انتفاضة اليأس وتجسد رؤياه وانها قضية ارتبطت بمشاعره فاثارت له القلق ودفعته الى اكتشاف ذاته وهو يشاهد الاحداث اليومية الرهيبة التي حف بها اليأس واحاطت بها العزلة وضربت عليها الذلة والمسكنة ، ولعلها كانت تعني معاناة الجماهير التي كانت تتوق الى النضال وتسعى الى الهدف خلاصا من الواقع المرير • الا انها كانت تضيع في متاهات الاغتراب ، وتذوب في زحمة الاحداث العنيفة ، والنزاعات المريرة والخضم الكبير من المشاكل الجديدة التي خلقتها جحافل الغزاة وهي تدمر المدينة ، وتستبيح ترابها الزكي وتحرق حضارتها العريقة •

لقد استطاع الشعر في احداث بغداد ان يرسم لوحة الكفاح العربي ، ويجسد طموح الجماهير رغم حالة اليأس التي كانت تبسط ظلها الثقيل عليها ، ورغم حالة الاغتراب التي كانت تبدو ملامحها في كل جانب انساني فان هذه الجماهير كانت تحاول ان تتخطى حدود الحياة المجردة وتتجاوز الواقع الضائع الى واقع تتحول فيه الصورة البائسة الى صورة عزم ، وفي الوقت الذي كانت اوساطا كبيرة تعيش الغربة عن الحياة ، وكان اليأس يموت في اعماقها وكان الاغتراب يقتل كل رغبة جامحة ، كانت اصوات العزم ترتفع ، وكانت عبارات اليأس والاستسلام تموت على شفاه المتخاذلين •

ان ظاهرة الاغتراب تمثل نزوع النفس الانسانية الى كل ما تجد فيه الراحة ، وهي ظاهرة لازمت البشرية ، فعاشت لحظاتها البائسة ، وعاصرت ازماتها الحادة ، وتحولت في كثير من الاحيان الى صور مفزعة ، واشكال مأساوية رهيبة عبر عنها ابطالها بتعبيرات حادة وقاسية ومؤلمة ، ان حديث الاغتراب في احداث بغداد بعد سقوطها يمثل اتجاهين، الاول يعكس حالة الرضوخ لحالة الاستسلام ، والخنوع لواقع الاحداث ، والانغماس في اشكال البؤس الذي اصبح الظاهرة المتميزة بعد انهيار الخلافة بعد أن استمرت قرونا طويلة ، وسقوط المدينة التي ظلت مركز اشعاع ومنطلق حضارة ، ومرتكز ثقافة انسانية زاخرة ، واندحار جيش بقيت اصداء فتوحه تستحوذ على اجزاء كبيرة من التاريخ . وهذا الاتجاه الذي تبنته اوساط معروفة ، وخضعت له جموع شخصتها الجماهير ، والثاني اتجاه اخر يرفض حالة الاغتراب ويتجاوز حدود الخنوع ، ويعبر ابعاد الاستسلام التي ضربت باكنافها العريضة فوق مساحات بشرية متناثرة . هذا الاتجاه كان يلوح في اصوات الرفض العربي الذي انكر الهزيمة ، وقاوم الحالة النفسية المتخاذلة .

ان الاتجاه الاول كان يتنامى في نفوس الشعراء لانه اقرب الى النفوس التي شعرت بالضياع فهزتها النكبة وادركت المأساة ففاضت الما وحسرة ، وتساقطت لوعة وبكاء وكأنها تريد التعبير عن الوفاء للارض التي عرفت وجود هذا الانسان والحب لهذه الجموع التي تساقطت في اروقة المدينة وفي ظلال اسوارها الحزينة وعند حافات طرقها المفجوعة . ولابد ان يكون الالم حادا ، والاحساس مريرا

والتداعي محزنا ومفجعا . ولعل قصيدة الشاعر شمس الدين الكوفي التي حاول ان يرسم فيها واقع الاغتراب الذي كان يعانيه تعد النموذج الواضح لذلك حين يقول :

عنـدى لاجـل فراقكـم آلام
فـالام اعـذر فيكـم والام

مـن كان مثلـي للحبيب مفارقـا
لا تعذلـوه فالكـلام كـلام

نعم المساعد دمعي الجـاري عـلى
خـديّ الا انـه نمّـام

ويذيب روحي نوح كل حمامـة
فكأنما نـوح الحمـام حمـام

ان كنـت مثلـي للاحبـة فاقـدا
أو في فـؤادك لوعـة وغـرام

قف في ديار الضاعنـين ونادهـا
يا دار مـا فعلـت بـك الايـام

ان الصوت حزين ، والصورة مفجعة والنفس صابرة وصـدى التأثر يوحي بالاحساس القاتل الذي كان يخنق صوت التحدي ، ويلف رنّة التمرد وقدرة المجابهة فالشاعر يدرك الحالة التي كانت عليهـا المدينة وقد ارتفعت في شعره اصوات الموت والخراب والنواح والفقد واللوعة وكلها موحيات مؤلمة ، ومشاهد مفزعة استطاعت ان ترسـم

اللوحة البائسة وتحدد معالم الصورة الشاحبة ، وهي لوحة كانت تبرز فيها احاسيس الناس الذين اغرقتهم المأساة فانطلقوا في التعبير عنهـــا وتعالت في اطراف احوالها خطوط الفجيعـــة فانصرفوا الى بؤسهـم يستمدون من احواله ما يعينهم على استكمال الواقع .. ان الرمز الذي يختفي في ظلال ابيات الشعر واخبار التاريخ وملامح الناس وسلوكهم يدل على الصورة الدموية القاتمة وحالة الاغتراب الصامتة التي عانتها المدينة وجماهيرها وان مأساة المدينة تركت سيلا من الشعر وسيولا من الاحاسيس وهي في حد ذاتها تمثل سيول المشاعر الانسانية التي ظلت تغني المدينة ، وبقيت ترثي كل درب من دروبهـــا ، وتتحدث عن كل خصلة جميلة من خصائلها ، وهي قصائد محزنة .

وكان شمس الدين الكوفي الشاعر الوفي الذي ظلت عناصر الوفاء الصادق تجوب في نفسه ، وبقيت اصالة الحس الانساني تتحرك في قلبه العاشق ابياتا واناشيد وترانيم .. من اولئك الشـعراء الذين تحدثوا عن النكبة حيث يقول :

ان لم تقـــرح ادمعي اجفـاني
من بعـد بعـدكم فما اجفـــاني
انسان عيني مـــذ تناءت داركم
ما راقـه نظـــر الى انســـان

يا ليتني قـد متّ قبـل فراقكم

ولساعـة التوديـــع لا احياني

مالي وللأيام شـــتت شـــملها

شملي وخـلاّني بلا خـــلان

ما للمنـازل أصبحت لا أهلهـــا

أهلـي ولا جيرانهـــا جيراني

وحياتِـكم ما حلّها من بعـدكم

غيرُ البلى والهـــدم والنيرانِ

الهوامش :

١ ـ العماد الكاتب · الخريدة قسم شعراء الشام جـ١/٤٦٢ ·
٢ ـ العماد / جريدة القصر /٤٠٦ ·
٣ ـ عباس العزاوى · تاريخ الادب العربي في العراق / ٣٠١ ·
٤ ـ ابن الفوطي · الحوادث الجامعة / ٣٢١ـ٣٢٢ ·
٥ ـ عبدالكريم توفيق · الشعر العربي في العراق/١٦٧ نقـلا عن مخطوطة المختار من ديوان مديح النبي (ص) الورقة (٣٠) ·
٦ ـ ابن الاثير · الكامل ١٢/٣٧٨ ·
٧ ـ ابن ابي الحديد · المستنصريات /٢٩ـ٣٠ ·
٨ ـ اسعد بن ابراهيم الاربلي · الديوان · مخطوط الورقة ٥٨ نقلا عن كتاب الشعر العربي في العـراق من سقوط السلاجقة حتى سـقوط بغداد / ١٦٠ ·
٩ ـ اسعد بن ابراهيم الاربلي · الديوان مخطوط الورقة ٦٣ـ٦٤ ·